K H A L I L   K A M I S



الفلامنجو يهاجر من تلمسان

خليل خميس



الفلامنجو يهاجر من تلمسان

الفلامنجو يهاجر من تلمسان/ رواية
خليل خميس/ سلطنة عُمان
الطبعة الأولى، 2013



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 00961 1 752308 / 751438

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 00962 6 5605432 ، هاتفاكس 00962 6 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف: موزه الخروصية / سلطنة عُمان
الصفّ الضوئيّ : المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذالطباعيّ : دمّو برس / بيروت ، لبنان

ISBN: 978-614-419-371-6



الفلامنجو يهاجر من تلمسان

خليل خميس



اهداء

جاءت الرواية تخليداً لحبها له

بين ضفتين

عاد من المسجد مسرعا وعلى شفتيها ابتسامة يختلط بها الإعجاب بالمكر فهي تتذكره كيف كان يتعاطى الشيوعية والإلحاد ويكفر بكل شيء سوى العقل .

– أيها المتجرد من كل شيء سوى من نسيم قريتك ، أتترك صوت عصافيرها وصياح الديك عند انبلاج الفجر (تخاطبه أخته وهي تبتسم) .

– سارة أختي العزيزة أنا وبلادي السويق كالسمكة والماء ، فهل سمعت سمكة تعيش دون ماء ، ومن قال لك إن من ذاق خضارها واستنشق غبارها وتناثر حرها ورطوبتها في خلايا جسده يروم صبرا عنها ، سأعود تأكدي من ذلك ولكن بعد أن أرجع نصف قلبي الآخر ليجمع ماتشظى منه في الأيام الغابرة (يبتسم ويطبع قبلة وداع على جبينها) .

حمل حقيبته البنية الصغيرة على كتفه اليمنى وسحب تلك السوداء الكبيرة ، توقف فجأة وعاد إلى الغرفة التي تجلس فيها والدته ، فقبلها على رأسها وسالت دموعها فهو يمثل لها الكثير من مخزون الحب الأمومي ، هذه المرأة استوطن حبها

نياط فؤاده ، جرت دموعه كالسيل العرم فخرج وعينه المليئة بالدمع تنظر بصعوبة إلى زوايا البيت التي تحمل له ألف حكاية وذكرى مع عزيز من أسرته ، فعند مقدمة المطبخ تذكر وهو يعطي والده الراحل كأسا من الماء وقد وضع قطعة كبيرة من الحصى ، فغضب حيال ذلك لكن أيمن كان يستمتع بغضب والده وبمزاحه ، تذكر عندما كانت الأسرة تجلس في الفناء المفتوح للبيت وكان صيفا حارا والجميع يصوم رمضان ، ويتحمل عذابات العطش فيه ، لكنه غافلهم وسكب في جوفه شيئا من الماء ليطفئ لهيب العطش ، فاكتشف أن الجميع وراءه ينظر فمنهم من يضحك عليه ومنهم من يعنفه ، تذكر إخوته حين يبدأ الليل يرخي ستائر الظلمة على التلال والوهاد القريبة وجدران البيت المتهالكة من قسوة السنين ، فإذا بأخيه سالم يزيد شخيره ويتحلقون حوله لاكتشاف أجمل تعليق ساخر فعلي يقول : إنها ماكينة كهربائية ، وناصر يقول إنها نوع من الأسلحة الأوتوماتيكية ، وتعلو الضحكات ثم يقوم علاء بوضع مشبك للملابس على أنف سالم ليمنع خروج الصوت ويواصل الجميع الضحك ، وذلك المسكين لا يستيقظ سوى مفزوع ، وبعد أن يضيق النفس عليه ، وأمام غرفة والديه تذكر عندما كان يحمل العصا على رقبته واضعا كلتا يديه على أطرافها ليسقط على ذقنه ويتناثر الدم ، فتسرع إحدى النساء العجائز اللواتي تتناول القهوة مع والدته بتضميده بالوسائل التقليدية

المتوارثة لا يخلو الملح من مكوناتها ، لكنه اكتشف أن تلك السقطة فعلت به الأفاعيل ، فقد تركت له ندبة طويلة في أسفل اللحيين لتكون مثار سخرية من إخوانه بأنه يمتلك شكل عصا في أسفل الذقن ، تذكر تلك النافذة بزجاجها الأبيض الشفاف الذي تجمعت حبيبات الصبغ الخارجي للبيت عليها كالفراشات حول النار يحب أن يفتحها دائما فإذا بأحد أصدقائه يأتي ليلا وهو خائف يتوسل إليه أن يفتح له لأنه رأى جنا وسحرة يتحلقون حول نار مشتعلة في إحدى المزارع القريبة من البيوت ؛ ليكتشفوا صباحا أنها مجرد بقايا من جذوع الأشجار المتهالكة أراد صاحبها التخلص منها بالحرق ، كل شيء في هذا البيت يحمل ذاكرة مستقلة وحدثا عزيزا على قلبه ، تحرك وأخذت أخته ساره تداعبه لتخفف عنه وطأة الرحيل :

- سلم كثيرا على نصفك الثاني الذي وجدته أخيرا (بابتسامة ماكرة) .

ابتسم ووضع حقائبه في سيارته وانطلق إلى وجهته ، أخذ ورقة بيانات السفر في يده يتحسسها ويلاعبها تارة ويضعها في حضنه تارة أخرى ، كمن يمسك على شيء ثمين جدا ، كان في كل لحظة ينظر إلى البيانات الموجودة بفرح وسرور كمن كان في حلم جميل ، لا تمر دقيقة حتى ينظر اليها مرة أخرى كمن لا يصدق الأمر ، فجأة وبعد عشرين كيلو متراً قفل راجعا ، فقد

تذكر شيئا ثمينا ومهما قد نسيه في البيت ليرجع مسرعا ، وإذا به يدخل البيت فيجد سارة وهي تذرف الدمع على فراقه ، لكنها حاولت إخفاء عواطفها وتجفيف دمعها الذي لا تجففه شمس الظهيرة ، نظر إليها بابتسامته المعهودة وكأنه يخفف عنها لوعة البعد ، لكنه لم يخرج حرفا واحدا من ثغره وذهب إلى غرفته ، فأخذ كنزه الثمين الذي لا يفتحه إلا نادرا ، وحين هم بالخروج سمع حمامة تنوح على سطح البيت فانسابت الذكرى العطرة في خلجاته ووجد أنه أخذ يسمع ذلك الهديل الجميل ، كم يطربه هذا الصوت ، كم يرجعه إلى عصور بني آدم المتعاقبة ، هي نفسها هذه الحمامة التي ناحت زمن امرئ القيس والمتنبي وقيس بن الملوح ، هي نفسها التي كانت تناديه وهو في مدرسة القرية ، حيث كان المعلم يشرح بكل جوارحه بحور الشعر ورنينها ، لكن صوت الحمامة كان أعذب لحنا وأهدأ شجنا ، تذكر وهو يبتسم معلم اللغة العربية حيث كان يقول لهم : أرجوكم اسألوا يا أولادي ، اسألوا أي معلومة في النحو ، أشعروني بأنكم مازلتم تتنفسون الهواء في صدوركم ، فرفع أيمن يده ليسأل بكبرياء وهو يستشعر العيون ولسان حالها يقول : ما شاء الله على التركيز المميز والحرص واللباقة ، لكن السحر انقلب على الساحر ، فأخرجه المعلم إلى السبورة بعد أن اكتشف أنه لم يستوعب الدرس أصلا ، فبدأ بضربه على الدبر أمام الجميع ليكون مثار سخرية أمامهم ، فلعن اللحظة التي

جعلته يرفع إصبعه ،لكنه أيضا كان مستمتعا بالضرب فهو ضمن سياق الأجيال التي لا تأكل ولا تنام ولا تفكر ولا تنجح ولا تستمع إلا بالضرب ، بدأ يتحرك نحو السيارة وما زال يستمع إلى تلك الحمامة وأشجانها ، فتذكر الأيام الخوالي التي نامها على سطح البيت أيام كانت أقصى أمنيات كل ريفي دخول التيار الكهربائي إلى بيته ، ابتسم حين تذكر والدته وهي تصر على والده بأن يجعل سطح المنزل محاطا بالوارش حتى لا يسقط أيمن وإخوته من أعلى ، ضحك حين تذكر أن إخوته كل واحد يحجز مرزابا حيث خصص لخروج ماء المطر من أعلى ليكون حمامه الخاص ، فإذا انتصف الليل هطلت أمطار الأجساد الصغيرة لتغذي الحشائش المتطفلة في الأسفل ، تذكر فرحة إخوته الصغار حين يكون النوم في الأعلى حيث تختلط رطوبة الجو برائحة البول ، فلا تفرق والدتهم بين الاثنين الا بالنتانة ، تذكر حين تجبره والدته أن يضع الحناء على يده ورجله فلا تنفعه كل جمل التوسل والاسترحام ، فالعيد اقترب ، وحين يرضخ لها لا يستمتع ذلك الحناء برجله ، حيث البكاء والصراخ يعلو منتصف الليل ، فتضطر الوالدة تحت وابل من تهديده لإزالته ونشره في أرجاء البيت ، فتزيله مهزومة مع العتاب والتقليل من رجولته ومقارنته ببعض الفتيات الضعيفات .

تتحرك السيارة وهو ينظر إلى البيت ككبسولة ذكريات

ابتلعها فأخذ مفعولها يسري في جسده ، مسك المقود وبدأ بالتحرك ثم توقف قليلا ، فقد كان باب حقل والده الراحل قبالته ، فركن سيارته جانبا وترجل منها فدلف إلى الحقل ، وما إن أمسك الباب الحديدي الكبير حتى تذكر والده الذي سقى بعرقه تربة ذلك الحقل الذي يتوسط القرية ، تذكر الليمون الذي كان يغطي بمساحته ثلثي الحقل ، تذكر أيام حصاده حيث العائلة تجتمع كلها ، وتساعدهم عمته راضية العجوز التي كانت أسطورة للأطفال في تحملها للحر والرطوبة والشمس الحارقة ، وفوق كل ذلك عدم خوفها من الحشرات المخيفة بأشكالها وأنواعها وخاصة العناكب ، وما إن ينتهي حصاد الليمون حتى يأتي الحصاد المرهق لأيمن ؛ إنه حصاد النخيل الذي يمتلىء الحقل به ، يتذكر والده وهو يحثهم على العمل (يداد يا اولاد عاشوا نريد نشاط) فجأة ابتسم متذكرا الحيلة الساذجة التي اكتشفها والده ، ففي كل صباح لا بد لأيمن وإخوته ان يقوموا بورد يومي في الحقل في أثناء خروج ثمار النخيل ، وذلك بالتقاط كل ما يسقط تحتها من ذلكم الثمار لإطعامها الماشية ، ولأنه يحب النوم والوقت صيف حار ورطب يأتي بالدلو فيملأه إلى النصف بالرمل الناعم ، ثم يغطي ما تبقى بثمار النخيل ، فحاز على اعجاب والدته في السرعة والهمة ، لكنه بعد ايام كان في مربع التعنيف بعد انكشاف اللعبة ، تذكر وهو يمشي إلى داخل الحقل المكان الذي دفن فيه عصفوره الصغير ، والذي

بكى كثيرا عليه ، وكان أول مرة يتعرف فيها على الموت ، تذكر لعبته المفضلة بعد أن يأتي من (الكتاب) فيدعو الفتيات اللواتي يدرسن معه بكل براءة إلى لعبته ، حيث يدفن ثمار النخيل الأخضر ويعطي كل واحدة شوكة لتغرسها في الأرض ؛ ليكون الفائز من يخرج عددا أكبر ؛ وهو سعيد جدا لأنه حاز على إعجابهن كلهن في نظره وبأنهن يتنافسن عليه ، تذكر حين حزن والده ودموعه الغزيرة التي سالت حين قرر ازالة شجر الليمون الذي أصابه المرض ، وكان وسط ذلك الشجر شجرة أحبها أيمن كثيرا وكان صديقا وفيا يداريها ويناجيها في كل يوم وهي شجرة (الزام) ، كانت تمثل له الكثير ، أخذ والده يصرخ عليه ليبتعد عنها وإلا سيكون هو والشجرة تحت الجرافة ، لكنه أغمض عينيه واستسلم لقدره قائلا لوالده وبصوت عال وهو يحتضن جذعها دون وجل أو خوف من الغبار والهدير الذي تحدثه الجرافة :

- أبي إما أن نكون معا أنا وهي أو لا نكون .

هز الوالد رأسه غاضبا ومستنكرا لهذا الفعل والعناد غير المحدود ، لكن قدر الآباء أن يمشوا أحيانا وراء نزوات أطفالهم ؛ فيتحولوا هم الراعي والآباء هم الرعية ، لم تكن من حيلة سوى الرضوخ لهذه الكتلة البشرية الصغيرة ، تذكر ذلك الكلب الجريح بعد أن أطلقت عليه دورية للشرطة النار في سياق حملتها ضد الكلاب المسعورة ، وقد كان مصابا بطلقتين ، أخذه

أيمن وعـالجـه وإخـوته وأزالوا الرصـاصـتين ، وبدأت تدب في جسده العافية ، وكان الجميع يتوقع أن يكون وفيا مخلصا لهم ذلك الكلب ، لكن الأمر كان مفاجأ له ، فلأول مرة يتعرف على معنى الخيانة ، فقد هرب الكلب ليضيف إلى قاموسه الصغير معنى التبدل والتحول ونكران الجميل ، تذكر حين يجمع أطفال القرية في الحقل ويبدأون بممارسة لعبة الحرب الملتهبة - كما يسميها - وذلك بالتقاذف بالطين ، الذي يسبب معظم الأحيان سيلان الدماء بسبب الحصى الصغير في داخله .

تذكر الساعات الطويلة التي يقضيها في حوض الماء في الحقل ، فيغدو كأنه كائن مائي وقد التوى جلد أطرافه وأصبح لونه فاقعا ، تذكر الساعات الطويلة جدا التي يقضيها مع بعض إخوته لمراقبة الطائر النادر الهدهد الجميل ، فيرتفع الجدل بعد ذلك حين يحرك رأسه : -

- ألا ترون ماذا يفعل؟ إنه يصلي (سالم)

- لا إنه كأي طائر يتحرك بحسب طبيعته (أيمن)

- صدق سالم ألا ترى وهو يخفض رأسه إنه يسجد (علي)

- هو يبحث عن الحب فقط صدقوني (أيمن)

تذكر أساطير الجن والسحرة ، فجميع الأطفال في القرية يجمعون أن حقلهم مليء بهم ، فهو يعتبر مرتعا ووكرا لهم ، ولا

أدل على ذلك من مغسلة الموتى التي أوقفها والده ليغسل فيها أهل القرية موتاهم ، فبعد تغسيل الميت تبقى آثار الحنوط والعطور التي تعارف الناس عليها وحصروا رائحتها على من يخرج من معترك الحياة فقط ، وفي الليل يخرج ذلك الميت ويأتي الحقل ليسكن تحت الأشجار ، تذكر كيف كان يجوب الحقل بين أشجار المانجو وهو يمسك بديوان مجنون ليلى ويردد بصوت عال :

أراني إذا صليت يممت نحوها
بوجهي وإن كان المصلى ورائيا

فجأة نزلت من عينيه دمعة ، فسيل الذكريات سيغرقه في مجراه العميق ، رجع مسرعا إلى السيارة محاولا غض البصر عن أي شيء يحيط به ، وفي طريقه رأى أمامه شجرة الجوافة الصامدة منذ سنين عديدة ، تذكر حين ترك الأسرة بعد الغداء الدسم واستجاب لطمعه الطفولي ، فذهب قبل إخوته ليقطف ثمارها وصعد إلى أعلى أغصانها ، وما هي سوى لحظات حتى سقط ليفقد الوعي لدقائق ، ابتسم وأغلق باب الحقل وفتح باب سيارته ، وقبل أن يتحرك كان قبالته بيت عمته الراحلة راضية ، تلك الطيبة التي مات كل أبنائها ثم مات زوجها ، تذكر حين زارها في المشفى وهي على سرير الموت : -

- عمتي عمتي أنا أيمن . .

- (تفتح عينها بصعوبة وأنين الألم يزاحم كلماتها) أيمن؟

- نعم يا عمتي الحبيبة أنا أيمن

- ولدي أيمن أظن أن الرحيل قد حان ولوجه ، فاعلم بأني صافية النفس تجاهك وراضية عنك وعن إخوتك ، كم أنا مشتاقة لوالدك (تجري دموعها)

- (بصوت متحشرج ضعيف) أرجوك عمتي لا تقولي هذا فستعودين معافاة كما كنت مرة أخرى بل وأفضل من السابق .

تذكر حين ينام معها ، حيث رائحة غرفتها ولباسها له مذاق مختلف عن سائر العطور ، لم يستطع العطارون أن يصنعوا مثله ، كان يستيقظ مفزوعا فصوتها يمزق أسداف الظلمة :

- لا تذهبوا . . لا تذهبوا

يا للمسكينة فأصوات أبنائها الذين رحلوا وصورهم لم تفارق ذكراها حتى في منامها ، رغم مرور السنين الطوال ، تحرك أيمن بسيارته مسرعا وذكرى المكان تلاحقه بكل تفاصيلها أينما قلب بصره ، نظر إلى الورقة التي يحملها وقد لفها حول جواز سفره وأخذ يقلبها كمن يبحث عمن يواسيه ويخفف بعض آلام الذكرى .

على أطراف القرية استوقفه تل الرمل الذي كان يجمع عليه في كل ليلة أبناء قريته ليعلمهم فنون التدخين ، تذكر حين أخبرهم سنطلق على هذا المكان اسما حركيا لجذب الجمهور فيضحك الجميع : -

- وماذا نسميه يا أبا الأسماء؟ (أحدهم)

- سنسميه وكر المودة

يضحك الجميع ويعجبون بهذا الإسم اللطيف الذي سينتشر في آفاق القرية ، أخذ يتذكر الكثير من الأسماء التي أدمنت التدخين والتمرد معه على المجتمع بفضل وكر المودة .

ابتعد قليلا عن وسط القرية وكاد أن يصل إلى طرفها الغربي ، حيث المقبرة الصغيرة ، توقف ينظر إلى القبور الناتئة الحزينة وأخذ يشير بيديه كمن يسلم على عزيز ، ثم بدأ يتمتم بحديث مع نفسه ويخفض رأسه انحناء كمن يقدم قرابين الولاء على مذبح المحبة ، أخذ ينظر إلى القبور المتناثرة طويلا وتذكر أحبابه الذين يرقدون هناك ، استمر بعدها في طريقه ثم اتجه شرقا إلى العاصمة مسقط ، لكنه بذلك قد دار دورة كاملة حول القرية ، وفجأة وقف يتأمل تلك المقبرة الكبيرة من جهة الشرق ، تذكر حين كان يجتمع برفاقه لشرب الويسكي ، الإيرلندي فالمقبرة محاطة بجدار مرتفع لا يراهم أحد ، وتلفها أشجار السمر المعمرة ، كان يتفنن في تعليمهم الخلطات التي تصاحب الكأس والمقادير المناسبة مع شراب الشعير ، ثم يأخذ يناديهم هلموا معشر المشردين ، تذكر حين كان يقول لهم (لو أن أصحاب هؤلاء القبور يخرجون لأعطيناهم كأسا ، ورغم ذلك فهم يحسدوننا على هذه الزجاجة الفاتنة ، لكننا لن نكون كرماء معهم) يضحك الجميع والانتشاء باد على وجوههم ، تحرك بسيارته مسرعا فكل قطعة من ذلك التراب تذكره بحدث ومواقف قد ندم عليها كثيراً .

تلمسان

شمالها البحر المتوسط وهي في شمال غرب الجزائر ، تقع تلك المدينة الوادعة ، انها تلمسان حديثا وأغادير قريبا ، انها عاصمة الزيانيين التي إن دخلتها تنفست عبق التاريخ ، تتناثر الجبال في كل الجهات كمن يحرس درة مكنونة ، أجواؤها المعتدلة تتناغم مع روعة سكانها وأخلاقهم ، فحين تتحدث إليهم يفرضون عليك احترامهم للرقي في التعامل الذي يتنفسونه في كل مواقفهم ، لا تخطىء عيناك شجر الزيتون والعنب والتوت الذي يحلو للتلمسانيين أن يدعوه بحب الملوك ، إنها مدينة ساحرة بتفاصيلها المتحفية والحديثة ، من يزرها في الوهلة الأولى يصاب بالإبهار ، فعاصمة الزيانيين تملك كل ما يجعلها تأسر العيون والعقول ، ومن يغادرها اثر زيارته الأولى سيشعر بالحنين إليها والرغبة للعودة اليها عدة مرات ومرات ، في وسط المدينة يوجد بيت الحاج علي ، لديه ثلاث بنات وابن واحد ، أكبر البنات اسمها أسماء ، كان والدها ينظر إليها بإجلال واحترام ، يرى فيها الطفلة المدللة رغم بلوغها السادسة والعشرين ، تمتلك جبالا شاهقة من المحبة والتواضع والرقة ، كان

الجميع يحترمها ويسعى لاسترضائها ، هي لا تحمل على أحد أية ضغينة أو حقد أو زعل ، دائما تلتمس العذر للآخرين مهما أخطأوا بحقها ، وهي دائمة التعرض للإحراج ومحاولة التحرش العيني واللفظي ، لأن جمالها الأخاذ جعلها تعيش في قلق وحذر ، ذات مرة مدير المؤسسة التي تعمل فيها أخذ يدخل مكتبها ويخرج على غير العادة ، بحجة أنه يبحث عن شيء مفقود لم يسمه ، لكن مكر الرجال لا حدود له ومكر النساء وذكاءهن لا يجاريه أحد ، كان يحاول أن يختلس النظرات ليرى ذلكم القمر الذي أضاء شعاعه أرجاء المكتب ، كانت المتاعب غير المتوقعة تلاحقها في كل مكان ، لكنها صبورة ولا تنظر إلا إلى الأمام ، فقريناتها في العمل تأكلهن الغيرة على ذلك الجمال النوراني والشخصية الدمثة الجميلة ، في أخلاقها فيختلقن الأراجيف عليها حتى إنها لم تنجُ من وشايتهن البهتانية لدى المدير الذي كان يبحث عن سبب ليخضع ذلك الجمال لسلطت ، ويمرغ قامته في أرض القبح التي يقف عليها ، لكن جمال الروح لديها كان أكبر من جمال الجسد الفاني ، لم ترد على أي إساءة سوى بالهدوء ثم الهدوء واللامبالاة ، فهناك الكثير في الحياة ما يستحق أن يعيش لأجله المرء ، ولم تضييع الزمن في قلق وانزعاج؟ كانت هذه هي وصفتها السحرية في التعامل مع كل إساءة أو استفزاز ، فيتحول الآخر إلى عابد لآلهة يسجد لها طالبا المغفرة والعفو ، كان والدها فخورا بها في

كل محفل يكون فيه وسط العائلة ، كان يناديها بجوهرتي ، فيثير الأمر غيرة لدى أختيها فيضحك الأب ، وهي تبادله الكثير من الحب والاحترام والتقدير ، هي لا تنسى تلك الليلة المظلمة التي كان الجميع قد ذهب فيها ليستمتع بحفل الزفاف ، بينما هي قضتها في كتابة بحثها ، وكان معها والدها فقط يساعدها في ذلك العمل المضني إلى أن انتهت ما قبل الفجر بقليل رغم كبر سنه ، فاستطاعت ان تحصل فيه على امتياز بعدما سلمته في ذلك اليوم ، هي لا تنسى كيف أنه لم ينم حينما مرضت ذات مساء وظل جالسا أمامها ، هي لا تنسى حينما خجلت من عطفه وحنانه الكبير حين وضع يده على جبهتها وآثار الإرهاق باد عليها ، وبدأ يتمتم بكلمات يبدو أنه يدعو فيها الله ثم قال :

- يا ابنتي أنت قديسة لن ينساك الله .

كان والدها يمثل لها الكثير ، تحب منهجه الثابت في إدارته للحياة ، وفي كل يوم تتعلم منه مبدأ جديدا لتجعله ماثلا أمامها لتسير على نهجه ، كانت تتمنى أن ترزق زوجا لديه خاتم الحنان والشفقة كوالدها ، تقدم إليها الكثير من العرسان لكنها ترفضهم جملة وتفصيلا ، تجد أن هناك الكثير من الثغرات فيهم ، والدتها تعاتبها : -

- يا ابنتي صديقاتك قد تزوجن وأنت تقتربين من الثلاثين .

- لا بأس يا أمي مادمتم لم تملوا مني فسأبقى معكم إلى أن أموت (تضحك) .

أخوها سعيد وهو يكبرها بربيعين لديه قدرة على تعلم اللغات الأجنبية ، فهو بالإضافة للغته الأم يتقن الفرنسية والإنجليزية والإسبانية ، هو يحبها أيضا لأنها تلبي طلباته دون تذمر ، فتصنع له ما شاء من حلويات ، خاصة (المقيرط) وغيرها من إبداعاتها في الطبخ ، تقدم له دائما النصيحة في اتيكيت اللباس والهندام حتى يكون مثار جذب للفتيات وتضحك عليه ، فيستفزها بأنه وجد لها عريسا وهو جارهم العجوز ، فتضربه بيدها على ظهره ويستمر بالحديث : -

- ماذا به جارنا سي محمود ، مازال شابا وقد تزوج خمس مرات ولديه اثنا عشر حفيدا .

- ألا تسكت قليلا أيها المشاغب (أسماء)

- تصوري أنك لو تزوجتيه سيزيد عدد الأحفاد لديه بعد ذلك (يضحك)

تقوم بالغناء بصوت مرتفع حتى لا تسمع صوته المستفز ثم تذهب إلى غرفتها وهو يتبعها فتغلق الباب في وجهه .

إنهما ثنائي مشاكس ، أما أختها دعاء فهي فتاة حركية وكثيرة الحديث لا تسكت أبدا ، مجرد أن يفتح موضوع إذا بها تكرر أفكاره وتحاول التطرق إليه من كل جهة إلى أن يتعب السامع ، تذكر أسماء أنها ذات مرة تناقش والديها وأخاها أن

تصبغ غرفة المعيشة بلون من ألوان الطبيعة ، وبعد أن جاء الدور لدعاء في الحديث بدأت تحلل الألوان لونا لونا ، والأطروحات النفسية وعلاقتها بالأكل ، واسترسلت في حديثها وكل واحد ينظر إلى الآخر ليس استغرابا من المعلومة فقط ولكن كيف سيكبحون ثرثرتها؟

أما باسمة الأخت الصغرى فهي نسخة أخرى من أسماء لكنها لا تحب الحديث أبدا ، فبمجرد أن تأتي إلى المنزل من المدرسة تبدأ بتقليب القنوات الفضائية ، لا يستطيع أحد أن يجلس معها في أثناء هذا الجو الخاص جدا لديها ، فهي تغير خلال دقيقة خمس قنوات وتظل على هذه الحال لمدة ساعة كاملة ، دائمة البحث عن الإثارة والجديد ، فحين لا تجد ما يشبع فضولها تردد :

- ملل في كل شيء .

إحدى صديقات أسماء قررت الزواج لذا لم تبخل عليها بالتجهيز ، فكانت كل يوم لديها في مراسم الزواج ، وفي اليوم الأخير كانت معها حين لبست الشدة التلمسانية ، فأخذت العروس تنظر إلى أسماء :

- أسماء أتمنى أن يأتي اليوم الذي أراك تلبسين الشدة ، سأكون قربك يا صديقتي (أخذت تبكي)

- لا عليك حبيبتي أعرف أنك ستكونين عندي وسيأتي ذلك اليوم لا محالة (أخذتها نزوة حزن حين تذكرت أنها ما

زالت على حالها لم تتزوج بعد ، وكل صديقاتها في كنف أزواجهن) .

حين تعود للبيت تجلس في غرفتها تتأمل في الحياة وفي نفسها ، تستغرب من الناس كيف يتكالبون على الحياة وهي فانية ، ينشرون الكذب والخداع والنفاق لأجل المصالح الفردية ، ما هذه الحياة التي نهايتها الفناء؟! ثم ما هذه الأمة الضعيفة التي ننتمي إليها؟ فقر وجوع ودماء وخلافات ، ما هذا المجتمع الذي نتشدق بمثاليته وبأخلاقه وهو ينوء تحت الخراب والفساد ، فجأة سمعت زقزقة العصافير ففتحت النافذة لتتعطر غرفتها بشدو تلك الأصوات العذبة الجميلة ، ومن بعيد رأت الطائر الجميل الذي تحبه إنه الفلامنجو ، كانت دائما تتمنى أن تكون مثل هذا الطائر لتطير بعيدا وتهاجر لتبحث عن عالم تغطيه المحبة ، لقد استبشرت خيرا حين رأت طائرها الجميل ، وانتابها لأول مرة شعور بالراحة والتفاؤل بأن تغييرا قادما في الأفق لا تدري ما هو ، لكنها تتوقع أن الأجيال القادمة ستمتلك زمام المبادرة ، جلست بعد أن كانت واقفة وأخذت تردد (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ، قامت بتشغيل صوت فيروز في جهازها ، فما إن بدأت تستمع حتى سمعت صوت والدتها من بعيد :

- أسماء يا أسماء !

أغلقت الجهاز وذهبت مسرعة لتبدأ رحلة مرهقة في الطبخ والتنظيف بحسب الجدول الأسبوعي .

بين قارتين

ابتعد عن قريته وهو ينظر إليها تصغر شيئا فشيئا ، وكلما ابتعد مترا خرجت دمعة حارقة كالطفل الذي ينتزع من صدر أمه ، أوقف السيارة جانبا وأخذ يبكي وينتحب ، بعدها مسح دموعه وترك صندوق ذكرياته ودولاب آماله ، دفن والده هنا في غرب القرية ، وهناك في شرقها يرقد أخواله وأجداده ، تنفس بعمق بعد أن فتح النوافذ كمن يخزن شيئا في مخازن الرئة الخفية من هواء قريته ، بدأ بالمسير مرة أخرى فهو سيذهب إلى أم وحبيبة وصديقة طالما انتظرها في سني حياته المنصرمة ، أخذ ينظر من نافذة السيارة إلى الناس والأشجار وإلى اللاشيء ، تذكر كيف كان قبل أشهر يعيش في حالة من التوهان الفكري والنفسي ، كان يقول في مواقفة الصعبة ان كان لي إله فلينقذني الآن! كان مدمنا على الكحول حتى في ليل رمضان الذي يصوم نهاره نائما ويشرب الخمرة في ليله ، رغم أن مجتمعه محافظ إلا أن الجميع عجزوا عن ردعه ، كان يقول لهم أقنعوا عقلي ثم اقنعوني ،كانوا يتجنبون الخوض في حديث معه ؛ لأنهم يعلمون أن معركتهم الكلامية ستكون مراكبها

متكسرة في بحر منطقه المتلاطم ، الذي ينم عن ذكاء ودهاء ، الجميع يحترمه ويحبه لدماثة أخلاقه ، هو يعلم ذلك ، تذكر حين دخل يوما في دكان للحلويات وكان السكر قد أثقل لسانه ، فوجد رجلا وقورا بلحيته البيضاء فسلم عليه وقبله على رأسه ، لكن رائحة الخمرة تملأ المكان .

- الله يهديك يا ولدي .

- دعه يهديك أولا ثم سيكون دوري (يضحك أيمن باستخفاف)

- استغفر الله ما هذا الكلام يا أيمن؟

- (يغير الموضوع) لكن يا عم سالم لم تقل لي (يمسك بلحية الرجل) ماذا تستفيد من هذا القماش الأبيض المعلق ؟ هل تمسح بها الطاولة أم السيارة (يضحك)

- هذه للرجال وليست لأشباه الرجال أمثالك (بغضب)

- لدى الوالدة ماعز جميلة لديها لحيتك نفسها ، هل هي رجل من الرجال أم أشباه الرجال (يستمر بالضحك)

سكت الرجل والغضب يغلي في صدره ، وأخذ يتمتم بكلمات غير مسموعة ولا مفهومة ، فخرج أيمن والضحكة مازالت مرسومة على وجهه .

تذكر حين كان مع رفقته تحت السدرة القريبة من المسجد والجميع يثرثر بشتى القصص ، فأذن المؤذن (الله أكبر) فنطق أحد الجالسين الله أكبر على رأسك أيها المزعج ، يا صاحب

الصوت القبيح ، فضحك الجميع ، وما هي سوى لحظات حتى مرت بسيارة (JEEP) زوجة أحد الجالسين ، فاختبأ حتى لا تراه متسائلا :

- هل مر طرزان! (ضحك الجميع)

تذكر ذات مرة أن الناس يخرجون من المسجد وكان والده ينظر اليه بحسرة وألم دون أن يحادثه ، كان ذلك اليوم قد أسرف في الشرب وقد سمع في تلك الأثناء :

- العالم يتطور ويتقدم وهذا الفتى مازال في غيه متخلفا!

التفت إليهم ضاحكا ثم أخذ يترنم بصوته الجهوري بقصيدة أمل دنقل :

العالم في قلبي مات ، لكني حين يكف المذياع ، وأسجيه فوق سريري

أسقيه نبيذ الرغبة

فلعل الدفء يعود إلى الأطراف الباردة الصلبة

لكنه تتفتت بشرته في كفي

لا يتبقى منه سوى . . .جمجمة . . وعظام

. . . وأنام

كان لا يأبه بنقد الناس ، فهو بالنسبة له حزمة من المهاترات والمماحكات الساذجة ، حتى والدته التي تبكيه ليل نهار لم يهتم لدموعها وبكائها ، حتى والده الذي كان مقلا في الصراخ والعتاب والضرب خرج عن طوره ذات مرة وبرك على

صدره بكل ثقله وأخذ يشده من شعره الطويل وبغضب شديد أخذ يصرخ في غير عادته : -

- أما يكفيك تيها وضياعا أيها الولد المخنث الملحد!

كان يعلم أن والده يحبه لكن غضبه كان بركانا خلف حمما ونيرانا ، ورغم ذلك لم يأبه للأمر وأخبر في الغد أصحابه كدعابة ساخرة أن والده اعتلاه كما يعتلي المغتصب مغتصبته ؛ ليبحث عن اللذة وعما يطفئ حيوانيته ، لكن والده كان اعتلاؤه لكما وصفعا وشدا للشعر وصراخا ، فضحك الجميع لتعليقه الظريف . .

تذكر حين حاول إرضاء والده فذهب ليصلي إلى المسجد ، وبعد أن خرج مملوءا بالمواعظ والدعاء من بعض الناس في المسجد مر صديقه شامس بسيارته ، طالبا منه المساعدة في إنزال بعض الأغراض الشخصية الثقيلة دون أن يفصح بشيء ، وبعد أن ركب معه .

- أيمن انظر ورائك (شامس)

- (أيمن ينظر باندهاش) انها أغطية محشوة بالملابس .

- (بضحك هستيري) افتح الأغطية يا عبقري .

- (يزيح الأغطية) ما هذه المصائب أيها الداهية؟ (يضحك)

- إنه زادي من زجاجات الويسكي لمدة سنة قابلة للتجديد (يضحك الاثنان)

- ساعدني في نقلها وأعطيك زجاجة .
- قسمة ظالمة (أيمن متحدثا)
- لا إنه العدل بعينه
- زجاجتان على الأقل . .
- حسنا موافق لا أستطيع معارضتك فأنت غال لدي .

تذكر كل هذا ودمعه الهتان يتهادى من مقلتيه ندما ، فجأة رأى امرأة تتجاوزه في الشارع ، نظر إليها ونظرت إليه خلسة ، لكن نظرته كانت مليئة بالاستغراب والتعجب ، فقد أعادته إلى ذكرى لم ينسها بعد حين قرر والده تزويجه عله يشعر بالمسؤولية فرفض قائلا :

- أبي ألا يوجد في هذه الحضارة سوى الجسد والجنس؟ ألا يكفي شقاء لك ولوالدتي أنكما خلقتماني في هذه الحياة الفانية ، ألا تشعر بالشقاء الذي أنتما فيه بسببي؟ أتريدون استمرارا لمأساة أخرى؟!
- لكنه نصف الدين يا ولدي (الأب متأثرا)
- لدي نصفي وأنا راض به ولا أريد أنصاصا أخرى تكون عبأ علي ، فلتحتفظ كل أنثى بنصفها .

كان هذا الرد الحاسم كافيا لإسكات الأب المكلوم لحالة ولده ، لكن أيمن لم يكن قاسيا بالفطرة ، فقد انسحب من حوار والده بعد أن رسم قبلة على رأسه .

تذكر جميع الفتيات اللواتي مررن بحياته ، لم يكن

يعطيهن بالا ، تذكر ابنة الجيران التي لم يلتفت لها بنظرة أو بسلام في يوم ما ، وحين استوقفته وهو يمشي ذات مرة في شارعه بينما هي واقفة أمام بيتها :-

- أيمن (تناديه فيلتفت إليها مستغربا)

- أنت شاب حقير ومتكبر ومتغطرس ، أخشى أن تدوس بنعالك رؤوسنا!! .

استغرب لهذا الموقف فهو لم يؤذها يوما ولم يؤذ أحدا من بنات جنسها ، ولا يريد ذلك ولا يفكر به ويحترم الجنس اللطيف كثيرا ، فكيف سيؤذي مشاعر هذا العالم الخاص من الناس؟ .

- إن شاء الله لن أدوس أحدا (قالها بسخرية ممتزجة بالغضب والتعجب)

في منتصف الطريق وجد ازدحاما شديدا فشغل قرصه المفضل الذي جمع فيه مجموعة من شعرائه المفضلين بصوته ، فانتقل بين بساتين مزهرة من المتنبي إلى مجنون ليلى فالجواهري ، فمحمد الماغوط ومحمود درويش وأحمد مطر وعبدالله الخليلي وعبدالله البردوني وعمر أبو ريشة وأحمد شوقي ونزار قباني ، لم يكن مغرما بصوته لكنه مشدود للتنهيدات الصادقة التي يطلقها هو بنفسه حين يبحر في خضم القصيدة ، ابتسم حين سمع رائعة البردوني (سحر الربيع) ، كاد أن يطير من سيارته ويحلق مع الطيور التي تشق السحب ، ظل

يهز رأسه طربا حين سمع أبيات البردوني : -

يا ربيع الحب يا فـــجـــر الهـــوى
مـــا أحـــيـلاك ومـــا أشـــذاك نشـــرا
تبـــعث الدنيـــا وتجلو حـــسنهـــا
مـثلمـــا تجلو ليـــالي العـــرس بكرا
وتبث الحب في الأحـــــجـــــار لو
أن للأحـــجـــار أكـــبـــادا وصـــدرا

في لحظات وجد نفسه أنه تجاوز تلك الزحمة ولم يشعر بالوقت ، ومازال طروبا بالقصائد التي يسمعها ويترنم بها .

النصف المفقود

أكملت أسماء تعليمها الأكاديمي في جامعة (أبو بكر بلقايد) ، بعد فترة وجيزة وجدت لها عملا إداريا في إحدى المؤسسات القريبة ، كان الكثير من الشبان ينظر إليها بإعجاب ، تقدم لخطبتها الكثيرون لكنها رفضتهم جميعا ، كانت تبحث عن شيء لم تجده فيهم ، وتدعو الله أن تجد ذلك الشيء في كل صلواتها وخلواتها ، هي فتاة محافظة لكنها تختار أوسط الأمور دائما ، كان الجميع يحبها في أسرتها الممتدة من أب وأم وأخوات وأخ وخال وعم وجدة ، إذا زاروا البيت ولم يجدوها يشعرون أن شيئا ناقصا في ذلكم البيت ، كثر الخطاب وهي تبلغ السابعة والعشرين من عمرها ، وقد ازداد القلق لدى والديها ، فكل الزهور من حولها قد قطفت إلا زهرتهما ، لكنها دائما تقول لهما :

- لا تستعجلوا فربما القادم هو الأفضل .

كانت تجلس في حجرتها ذات ليلة وتذكرت ذلك العريس الشاب الذي حاول الجلوس معها ومحاورتها ، لكنها أدارت رأسها عنه فقد قرأت شخصيته من رؤيتها لعينه وتقاسيم

وجهه ، شعر حينها أن أبوابها موصدة فانسحب ، كان حديث من حولها عن الزواج وتقدم العمر يشعرها بالقلق والضجيج في نفسها ، إلا أن التفاؤل تميمتها الدائمة في فكرها ، هي قارئة للفكر والأدب لا تفوت كتابا أو مقالة إلا وهضمت ما فيها ، لكنها أيضا تكتب وتدون وتسبك أفكارها ، كم أرسلت مقالات لبعض الصحف في الجزائر لكن بعضها ينشر والبعض إذا خالف هوى التحرير يكون مصيره أكبر سلة في المبنى ، لكن لا بأس فخدمة الفكر والأدب بحاجة إلى أوقات طويلة ، والهمة في احتراف القراءة والكتابة لا بد أن تنطلق من الداخل وليس من الخارج ، الذي يميت أجنة الإبداع في رحم الثقافة ، كانت الثورة الإعلامية قد بلغت شأوا كبيرا من التطور ، ووسائل التواصل الاجتماعي قد غدت كالحمى تجتاح كل العالم ، فضلا عن العالم الثالث المستهلك الذي لا يصله الجديد إلا بعد سنين عجاف ، ومن ضمن هذا الوسائل (الفيسبوك) ، أنشأت أسماء صفحة بإسم مستعار تحت اسم (نورة آدم) وبدأت تبث إبداعاتها وكتاباتها ، كانت لا تستضيف أحدا في صفحتها سوى من شعرت أن لديه انبعاث الإبداع والتميز ، وتترك كل الانتهازيين والسفلة والمنحرفين بعيدا عنها ولا تفتح لهم مجالا لتفاهاتهم ، زاد عدد الأصدقاء والصديقات لديها لكنها لا ترنو إلى ذلك بقدر ما ترنو أن تكتب ما تريد ، وبعد شهرين من اشتراكها في هذه الوسيلة المفيدة والممتعة شدها

مقال قصير عن الثقافة وأهميتها في بناء المجتمع ، وضح المقال الذي ظهر معها بسبب إعجاب احدى الصديقات به ، نظرت إلى الكاتب ، صورته واسمه : أيمن ناصر من سلطنة عمان ، لم تعر الأمر أهمية ، وبعد شهر من هذه الحادثة إذا برسالة لطلب الصداقة باسم أيمن تأتيها ، فلم تتردد كثيرا فثبتت الصداقة حين تذكرت هذا الاسم ، تقول لصديقتها لمى المتشددة تجاه الصداقات مع الرجال في الفيسبوك حين عاتبتها على إضافة رجل إلى صفحتها : -

- لا أدري صديقتي انتابني شعور لم أستطع السيطرة عليه ، رغم أني رفضت الكثير من الصداقات وبدون تردد ، لقد كان هذا الشعور الآمر الناهي لأستضيفه فأضفته ، لقد أعجبتني كتاباته وطرحه .

- ألا ترين أنه علماني التوجه في فكره ، ألم تقرأي دعوته لتطبيق الدولة المدنية التي سماها بالعلمانية الجزئية (لمى)

- نعم قرأت ذلك .

- تقولين ذلك ببرودة أعصاب ، ألا تعرفين أن العلمانية تساوي نكران الدين وإبعاده عن الحياة تماما ، وأنت فتاة صالحة ومتدينة .

- يا عزيزتي فليذهب وأفكاره وما يقوله إلى أقصى الشرق أو الغرب ، وما دخلي في ذلك كل واحد وهو حر فيما يتبنى من أفكار .

- إني اقول هذا لقلقي عليك وحبي لك .

- لا تخافي فلدي مبادئي كما لديه مبادئه ، وأنا حرة في ذلك ولدي عقل يفكر وقلب يقرر ولست إمعة .

- إني أخاف عليك أن يجرك هذا الشاب المجنون في أفكاره ويفتنك عن دينك .

- (قفزت ابتسامة في شفتيها) لا تخافي صديقتي العزيزة فوالدي رباني أن أكون كالجبل الأشم أمام الريح العاتية .

ذات مرة وجدت رسالة في صفحتها باللون الأحمر ، فقالت في نفسها هذه صديقتي لمى يبدو أنها لم تنتهي من ثرثرتها معي ، وحين فتحت الرسالة تفاجأت أنها من أيمن معلقا على منشور لها ينادي بالحرية للشعوب :-

- أهلا نورة . . ما رأيك بالديموقراطية المنتشرة الآن في دولنا العربية؟

- (رغم اندهاشها من السؤال لكنها أجابت) هي صمام أمان للحرية فإلى متى سيظل العربي في خوف؟

- هذا لا يختلف عليه اثنان ، لكن هل تعتقدين أنها قابلة للتحقيق لدينا ، فنحن العرب تجري في عروقنا مهنة الراعي والغنم حتى الوقت الحاضر رغم الحداثة ، فالشعب هو الغنم والحاكم هو الراعي ، مازلنا نقاد إلى مصيرنا كالخرفان .

- لا يوجد مستحيل يا أيمن إلا في عقولنا ، ألا ترى الثورات العربية المتعاقبة ، إنها الربيع العربي بكل المقاييس .

- لكن هذه الثورات وإن كانت شعبية فلا يوجد لها رؤوس ثقافية توجهها وتدافع عنها ، وتنظر وتؤطر لحركة الجماهير وإلا ستؤكل .

- قلت لك إنها ثورة شعبية تجاوزت المثقفين وأبراجهم العاجية .

- أنت تعرفين أن دولنا العربية محكومة من محورين ولا نستبعد التأثيرات الخارجية أيضا!

- ماذا تقصد بالمحورين؟

- أي زعيم فاسد لديه جوقة من الفاسدين ، وأسفل منهم آخرون مثلهم يقتاتون على موائدهم ، هؤلاء يديرون الدولة فتسمى الدولة العميقة ، وأما المحور الثاني فهو مؤسسة العسكر التي تتحفز للانقضاض على كل شيء يخالف توجهاتها .

- ماشاء الله أيمن يبدو أنك مغرم بالسياسة وضليع بها .

- لست مغرما كثيرا بها ولست ممن تقولين بتضلعهم ، لكن هذا ما يراه أي شخص متابع .

- يبدو أنك مثقف وما أقل الشباب المثقف هذه الأيام!

- (يضحك أيمن مع نفسه ثم يكتب) الثقافة أكبر منا يا أسماء ، فنحن نتطفل على مائدتها المستديرة والآن دعينا نعود إلى موضوع الديموقراطية .

- حسنا لكن هلا عذرتني الآن لدي ظرف خاص وسأخرج عنك ، وأعدك بأن نناقش الأمر لاحقا .

- حسنا لا بأس .

- السلام عليكم .

- أهلا وسهلا .

استغربت أسماء من رده للسلام لكن لم تعط الأمر أهمية ، فكل بحسب العادة التي تعود عليها في مجتمعه .

بعد أن زارت جدتها التي تعيش لوحدها في بيتها انقطعت عن كل العالم ، فهناك لا توجد شبكة اتصال ، وقد أجبرتها الجدة للجلوس معها يومين ولم تستطع الرفض ، وبعد أن عادت إلى البيت مساء وضبت أشياءها للغد ، وفي الصباح ذهبت عند عودتها فتحت صفحتها فوجدت رسائل من أيمن فابتسمت بعد أن قرأتها .

- أهلا أسماء أين أنت؟ ألم تعديني بمناقشتي؟

- (بعد خمس دقائق) يبدو أنك صائمة عن الكلام!

- (بعد ربع ساعة) من الأفضل الانسحاب وعدم تضييع الوقت . .

- (بعد أربع ساعات) يبدو أنكن معشر النساء لا تطقن النقاش ، فالعاطفة تغلبكن كثيرا إنه الطبع الذي يغلب التطبع .

- (بعد سبع ساعات) يظهر أن الحديث عن الديموقراطية أفرز ردة فعل لديك .

- السلام عليكم أيمن أنا هنا (أسماء تكتب)

مضت عشر دقائق وأيمن ينظر إلى جملتها ولم يجبها

بشيء فقط ينظر إلى المكتوب .

- أيمن اعلم أنك هنا فعلامة اتصالك الخضراء ظاهرة أمامي .

تمر نصف ساعة وأيمن مازال مترددا أيرد عليها أم يتركها وشأنها؟ بعدها قرر الرد بعد أن رأى إصرارها على الحديث .

- أهلا أسماء

- أخيرا تنازلت عن كبريائك يا رجل! وأدركت معنى الحياة .

- ماذا أفعل؟ فالحياة ورطة والممات ورطة فأين السبيل من الاثنين؟

- الحل هو الإيمان أيها الشاب . .

- هذا هو طبعكم معشر المتدينين ، لا حديث لكم سوى الطهارة والنجاسة والوضوء .

- حسبك أيمن أنا لم أحدثك عن الذي ذكرته لتسخر مني ، وإنما حدثتك عن الإيمان ، أتدري ما هو الإيمان؟

- حدثيني أيتها الخطيبة المفوهة!

- وما الضير أن أكون خطيبة مفوهة كما تقول ، على الأقل سينتفع مني الناس ويطبقون نصائحي ،لكني لست كذلك - للأسف - .

- طيب هات أيتها الناصحة ما عندك .

- سأقول لك شيئا يقرب إليك معنى الإيمان؟

- أنا أنتظر لأقرأ .

- أنا مؤمنة بأنك لم تشرب كحولا طوال المدة التي لم نتحادث فيها .

- ما شاء الله على العاطفة الإيمانية ، وما أدراك أيتها الناصحة؟

- الذي أدراني هو قلبك ، مع اعتذاري لهذا الانقطاع لأني كنت في زيارة لجدتي المريضة . .

- وكيف هي الآن؟

- جيدة بحمد الله .

- لكن ما الذي جعلك تثقين في حديثك؟

- قلبك يا أيمن ، أنت تمتلك قلبا طيبا من خلال الحديث ، رغم اني لم أرك لذلك عندما قطعت عهدا لي بعدم شربك للكحول كنت واثقة ومؤمنة بك .

- إنك تبالغين أيتها الفتاة المزعجة (يشعر بشيء من الضيق) .

- لا أرجوك أيمن لا أريد إزعاجك ، أرجوك استمع إلي ، أود سؤالك وبصراحة تامة : هل شربت الكحول بعد عهدك لي أن أن تتركه في أثناء محادثتك لي؟

- (ظل صامتا برهة من الزمن) الحقيقة لم أشرب منه شيئا طوال اليومين وإلى الآن .

- هل رأيت وصدقتني الآن بأنك تمتلك قلبا طيبا ، أيمن

اسمع إلى ذلك الصوت العميق في داخلك ، لا تمنع شعاعه أن يخرج دعه ينطلق .

- لماذا تجعلون الإيمان هو أساس الدخول إلى الجنة أو النار؟ هناك الكثير من الناس غير مؤمنين ولكنهم في سعادة .

- أنا لا أتحدث عن النار أو الجنة ، فهذه بيد ربنا القدير ولا سلطة لنا عليها ، ثم إن حديثك بأن الكثير من الناس غير مؤمنين وهم في سعادة من أين لك هذا؟ وكيف عرفت أنهم في سعادة؟

- ومن أين لك هذا أيضا؟

- من خلال حواراتي مع غير المسلمين ، فأنت تعلم أن الجزائر احتلت أكثر من مائة عام ، ومازال يأتي إلينا بعض الفرنسيين للزيارة ونقابلهم ونتحادث معهم ، فنشعر بالخواء الروحي لديهم ، وكم منهم من اعتنق الإسلام ، ألم تقرأ كتاب (الصراع من أجل الإيمان)

- سمعت به لكن لم أقرأه بعد!

- إنه للدكتور الأمريكي جفري لانغ (Jeffery Lang) وقد اعتنق الإسلام وكتب انطباعاته حين أسلم وشعر بالإيمان .

- وماذا قال؟

- قال إذا ما كان علينا أن نؤمن بالله فإن علينا أن نفترض أن تصوراتنا للعدالة والمحبة والشفقة والمسامحة والصدق والرحمة هي ربما غير كاملة ، ولكنها تتألف من شيء ما حقيقي

ينبثق عن الله ، وهذا هو السبب في أن الحياة بكل معاناتها ومحنها ، وبكل تجاربها وأخطائها ، منافية للمنطق لدرجة كبيرة ، إذن فما هو الهدف المحتمل الذي قد ينجم عن هذه المصاعب؟ لماذا لم تبدأ الحياة في الجنة؟ ومع ذلك فالقرآن يؤكد أنه في تخطيط الله للكون جعل حياتنا الدنيوية مرحلة ضرورية في الوجود الإنساني .

- هو يتحدث عن غاية الإنسان في الحياة (أيمن)

- أجل وهذا الأمر يرتبط بالإيمان أيضا ، ويقول : الأعمال الصالحة والسعادة الدائمة تنجم عن الإيمان ، والأعمال الحسنة عندما تنجز بنية طاهرة فإنها تغذي إيمانا أعمق ، وطمأنينة ، وعيشة هنيئة ، ولا شك أن الله ليس بحاجة إلى أعمالنا ولكن علينا أن نؤمن وإلا فلن تكون لدينا النية الحسنة ، وفي العلاقات الإنسانية يترجم الإيمان الصادق بالفعالية الاجتماعية والقلق العميق تجاه أخيك الإنسان .

- كلام جميل ومتزن ، يبدو الرجل قد شعر بتغير لامس شغاف قلبه .

- أود أن أضيف جملة له فقد تذكرتها الآن إذا سمحت لي أيمن .

- هات .

- يقول أيضا يجب ألا نغفل عن الحقيقة القائلة : إن أجمل هدف في الحياة هو أن تكون مع الله .

- أسـمـاء وكـأن جـملتك مع سـابق الإصـرار والتـرصـد ، وكأنك تخاطبين شخصا ملحدا .

- لا أرجـوك أيمن لا أقـصـد هذا أبدا ، ولكن كنت فـقط راغبة أن أوضح بأن هناك سبـيلا ثالثا عندما تحـدثت أنت بأن الحـيـاة ورطة ، والممـات ورطة فـأين السـبـيل من الاثنين؟ أتذكـر عـبــارتك أم نـســيـت؟! أردت أن أقـول بأن الإيمان هو الطريق المضـيء بين الطريقين اللذين ذكـرتـهـمـا أليس كـذلك؟ ، دعنا الآن نرجع إلى موضوع الديموقراطية في بلادنا العربية .

- آه لقد نسينا حوارنا الأساسي بسبب تفرع نقاشنا ، لكن أسماء الوقت استهلكناه فما رأيك أن نؤجل الأمر إلى الغد .

- بكل سرور .

- طاب مساؤك .

- ليلة سعيدة السلام عليكم .

انتظار

بعد نحو ساعة قضاها أيمن في ردهات الشوارع يصل أخيرا إلى المطار ، وبعد أن أنهى إجراءات السفر تفاجأ أن الطائرة المتوجهة إلى الجزائر ستصل بعد ثلاث ساعات . لم يتذمر أو يحتج رغم لهفته الجامحة في الذهاب ومقابلتها ليبدأ مشوار حياته ، أخذ كرسيا قصيا وانتحى جانبا وجلس عليه ، فأخرج من جيبه دفترا صغيرا كتب فيه بخطه الشفيف المسماري كما يصفه أصدقاؤه مجموعة من الجمل ، سماها سبل الارتواء ، كان دائما يحب أن يقرأها مع نفسه ، يعتبرها مددا روحيا لا يستغني عنه ، فإذا ادلهمت أوقاته وعصفت به الهموم يرجع إلى ذلك الدستور الذي يبدأ أول جملة فيه :

- اعتن بنفسك يا أيمن . . اعتن بأيمن يا أيمن .

ثم تتوالى الجمل في دستوره الصغير :

- حافظ على أيمن حتى أكون في يوم بقربه لأحافظ عليه .

- سجدة لله مع الإخلاص هي دلالة كبرى على قربك منه .

- الأمة مجتمع ، والمجتمع مجموعة من الأفراد ، وأنت

واحد منهم فكن بناء لا هداما .

- القرب من الله يذلل الكثير من الصعاب .

- الإيمان لا يناقض الحياة فكن مؤمنا منتفضا للحياة وما بعدها .

فجأة سمع طفلا يصيح وهو يسحب رداء أمه يستعطفها لتلبي طلباته ، وقد ملأ صراخه القاعة وهي تحاول تهدئته مرارا ، ووجهها ممتقع احمرارا لحرجها من الإزعاج الذي سببه للناس ، نظر إليه أيمن وتذكر أن لديه كما جرت عادته شيئا من الحلويات في حقيبته الصغيرة . انتضى قطعة منها وذهب إليه ليعطيه بابتسامته العريضة :

- خذ يا حبيبي الصغير انها شوكولاته لذيذة .

بدأ صوت الطفل بالخفوت شيئا فشيئا ، ثم أدخل إصبعه في فمه كمن خير بين أمرين ، البكاء الذي لن يجني منه سوى مسك الريح أو أخذ الحلوى والسكوت ، فاختار بعد صمت الأمر الثاني وسكت نشيجه تماما ، وبدأ يدب الصمت في عروق المكان فشكرته أم الطفل وعاد مكانه .

تذكر حينها محادثته مع أسماء حين قالت له إنها تحب الحلويات كثيرا ولا تخلو حقيبتها منها ، قال لها لقد احببت الحلوى لأنك تحبينها ، ولم يقصر في ذلك فقد زف جميع أنواعها إلى جيبه وسيارته وبيته ابتسم ثم أخذ نفسا عميقا .

تذكر ذلك النقاش الحاد الذي دار بينه وبينها وهي ما زالت

نوره في اسمها الحركي في وسيلة التواصل (الفيسبوك) ، كان يشك أن تكون فتاة بهذه الأخلاق والتدين أن تضع اسمها الحقيقي أو صورتها ، فكان يحادثها يا . . . . . بدون اسم ، وحين قال لها مستفزا : أنت تقولين إن لنا حضارة أين هي يا . . . . حضارتنا ، انظري إلى التاريخ ستجدين الدماء والدموع يا . . . . . ، فردت عليه بغضب :

- اسمي أسماء وليس يا . . . . . .

- إذن اسم نورة ليس اسمك .

- هي صديقة في الصغر فقدتها في حادث سير رحمها الله .

- أظن الصورة ليست لك كذلك .

- يا إلهي لا أتصور أن اضع صورتي ليراها القاصي والداني من الأغراب ، لم أتربَّ على هذه الأخلاق ، ولم يوصني ديني على ذلك .

- لكني أتوقع أن جمالك أجمل من ذلك بكثير .

- شكرا على المجاملة لكن أخي أيمن أرجوك لا نريد أن نخرج عن مبدأ اللباقة والحوار .

- أعتذر جدا أسماء ، أقصد يا أخت أسماء فقد أحببت مداعبتك .

فجأة يبدأ الطفل بالصياح مرة أخرى ، يبدو أن الليلة لن تمر على هذا الكائن الصغير دون أن يفرغ كيس حلوياتي في جوفه

(يحدث نفسه أيمن) ، اتجه ومعه كيس الحلوى وكيس آخر للبسكويت التركي الفاخر ، واستأذن والدة الطفل التي كانت مشغولة برضيعها ، ويبدو أنها وحدها دون زوجها ، وقد حاولت شكره بعدم أخذ الكيس بسبب الإحراج ، لكن أقنعها فوافقت وبدأ ذلك الشقي الصغير يركض فرحا بغنيمته .

عاد أيمن إلى مكانه وبدأ يأخذ نفسا عميقا ودفتره الصغير في يده ، أخذ يتذكر تلك الليلة التي كانت مداولات فكرية بامتياز مع أسماء .

- ماذا تقرئين هذه الأيام؟

- أقرأ لمنهدس الحضارة .

- أتقصدين مالك بن نبي .

- وكيف عرفت ذلك؟

- ربما يمكن تسميته نوعاً من السحر في الفكر .

- أشعر أنك لست سهلا . .

- دعك من هذا . . ما الذي تقرئين للرجل؟

- أقرأ كتابه شروط النهضة ، لكن لم تخبرني كيف عرفت مالك بن نبي؟

- أعرفه من خلال كتبه فقط .

- أعني ماذا تعرف عنه؟

- أعرف أنه جزائري الأصل ، وأن الكتاب الذي بين يديك كان في الأصل باللغة الفرنسية للمؤلف في سنة

١٩٤٨م وترجم إلى العربية في ١٩٦٠م .

- ألم أقل لك إنك لست سهلا! لكن أتدري كم سنة عاش في فرنسا . .

- في الواقع لا أذكر . .

- عاش فيها زهاء ثلاثين عاما ، لكنه لم ينس أمته أو وطنه ، بالرغم أنه كان متخصصا في الهندسة الكهربائية .

- وما الذي وجدته في كتاباته مميزا؟

- وجدت الكثير ، فقد شعرت أن الرجل ، رغم مرور السنوات على رحيله ، إلا أن حديثه ما زال ماثلا لجراحاتنا ومشاكلنا الحالية .

- إذن هو متضلع كمؤرخ أم كعالم اجتماع .

- هو ليس مؤرخا ولا عالم اجتماع ، رغم تخصصه العلمي ؛ أي ليس بالمعنى الثقافي ولا بالمعنى السياسي ، وإنما الرجل صاحب رؤية وفكرة أو قل صاحب مشروع .

- صحيح رأيته كذلك حين لقيته (بدأ مفعول الكحول يزداد في جسده ويفقد التركيز)

- رأيت من؟

- صديقي صالح . .

- (أسماء باندهاش) ماذا حصل لك أيمن؟ نحن نتحدث عن مالك بن نبي ، يبدو أنك متعب وداعا (تغلق المحادثة الكتابية) .

في مساء اليوم التالي كانت أسماء مترددة ، هل ترسل له رسالة أم تتركه ، لكن المبادرة كانت من أيمن ، فقد وردت رسالة وهي تتصفح صفحتها

- أهلا أسماء هل أنت هنا
- أجل أنا هنا اهلا وسهلا .
- كيف الأحوال؟
- الحمد لله ماذا بك البارحة لم تكن طبيعيا؟
- آه ، لا شيء لا شيء ربما إرهاق (يحاول التهرب)
- أنا مصرة لأعرف السبب وإلا . . .
- قلت لا شيء كان إرهاقا .
- قلت إني مصرة لأعرف السبب والا سأضطر للخروج عنك
- اخرجي لست مجبرة على محادثتي . .
- إذن أنت لا تحترم من أمامك ، ولم تكن عند كلمتك في حديثك الأول حين قلت إنك تحترم الجنس الرقيق كثيرا .
- قلت لم أجبرك على شيء وإن شئت الخروج فافعلي ما شئت .
- حسنا .

(تخرج أسماء من المحادثة)

- يا لها من متعجرفة ومتكبرة ، تظن أنها أجمل الفتيات وأكثرهن ثقافة ، يا لها من مغرورة .

مر يومان لم يحادثها ، لكنه شعر أن حنينا إليها أو ما يشبه الشوق قد بدأ يتحرك في صدره ، قاومه ، رمى به في غياهب النسيان ، لكنه رجع مرة أخرى ، أخذه في علبة اللامبالاة ورماه بعيدا لكنه رجع ، ظل في عراك طويل مع نفسه إلى أن انهزم أمام ذلكم الشعور الغريب فأرسل اليها :

- أسماء هل أنت هنا (مرت الدقائق ولم تستجب)

- أسماء أرجوك حادثيني (لم ترد عليه)

- أسماء تريدين معرفة الحقيقة التي ستجعلك في منأى عن أمثالي (لم تستجب بعد)

- حسنا يبدو أني عنصر إزعاج لك سأخرج الآن .

- انتظر أيمن (فجأة تحادثه)

- أهلا وسهلا هل ما زلت تريدين عدم محادثتي!

- أنت الذي لا تريد !

- ومن قال ذلك؟

- لم تدخل المحادثة ليومين ، وقد غضبت مني آخر مرة!!

- حسنا أعتذر لك أيتها السيدة الطيبة . .

- لا بأس هات ما معك . .

- ماذا؟

- أنسيت؟ ألم تقل لي إنك ستخبرني حقيقتك خاصة ما حصل بيننا من نقاش . .

- أنا يا أسماء . .

- أنت ماذا؟
- كنت شاربا . . .
- كلنا نشرب الماء والعصائر ، وكلها ولله الحمد متوفرة في كل مكان ، خاصة عصير التوت فأنا أحبه كثيرا . .
- لا أقصد هذا . .
- إذن ماذا تقصد؟
- كنت شاربا خمراً . .
- ماذا؟
- أجل هذه هي حقيقتي التي لم أود البوح بها .
- أيمن قل لي إنك تمزح . .
- لا أمزح إنها الحقيقة
- أيعقل أن يكون شاب صغير مثلك وبهذا القدر من الثقافة يحتسي الخمر . .
- وما الضير في ذلك؟ فالآخرون أبدعوا في الحضارة الحديثة ولم يكن الخمر الذي يشربوه عائقا أمامهم!!
- ما الضير؟! أتسألني؟ ألست مسلما؟ ألا تعلم أن دينك حرمه؟! ألم يخبرك أحد عن منظومة الأخلاق والقيم في مجتمعك؟! وهل تظن أن كل من في الحضارة الغربية يحتسون الشرب!
- لماذا إذا خالفكم أحد الناس تضعونه مباشرة في جهنم وكأن مفاتيحها بأيديكم؟!

- توقف عن هذا الحديث الأجوف ، أنا لم أضعك في نار جهنم ، فهذه ارادة الله وحكمه وعدله ، لكنك تأتي بعمل حذر منه دينك . . .

- كفاكم وعظا وتهديدا ، لقد تعبنا من هذه الأسطوانة المشطورة من وسطها إلى جوانبها .

- أنا لست واعظة ولا أقدم نفسي كذلك ، أنت تمتلك روحا صافية وأخلاقا عالية ومعدنا ثمينا ، لا يمكن أن يضيع كل ذلك في كأس خمر .

- أشكرك على مجاملتك الرقيقة وإن كنت لا تعرفين شيئا عن أيمن بعدا!

- انا لا أعرف الكثير عنك هذا صحيح - ولست مضطرة إلى ذلك - لكن كل إناء بما فيه ينضح ، فأسلوبك في الحديث والكتابة وصدقك في كلماتك كل ذلك يدل دلالة واضحة على معدنك النادر هذه الأيام . .

- شكرا أسماء على هذا الإطراء المغري ، دعينا الآن في الثقافة .

- تفضل أستاذي العزيز .

- أستاذك! لقد أثرت ضحكي لهذه الكلمة يا أستاذة أسماء .

- أنا أستاذة في ماذا؟ ربما في الجهل أو الثرثرة!

- إذن لا تنعتيني بلقب ليس لي .

- حسنا يا أستاذ أقصد يا أيمن ، كنا نتحدث عن أن مالك بن نبي يمتلك رؤية .

- ماهي الآراء الفكرية في استنطاق التاريخ لهذا الرجل؟

- له رأي في كتاباته الفكرية ، وهي أننا كشعوب استعمرنا لأن لدينا قابلية للاستعمار . .

- أليست مقولة مجحفة للشعوب العربية؟ أيعقل أن أحدا يقبل بالاستعمار . .

- كنت كذلك أظن لكن حديثه يبدو له عمق ومعنى . .

- كيف؟

- عندما تستقرىء الواقع والتاريخ ستجد أننا نستنجد بالعدو أو نفتح له مجالا للتدخل في بلداننا .

- هل نقول مثلا إن الفلسطينيين الذين يقاومون الاحتلال الإسرائيلي البغيض بأنهم كانوا سببا في قابلية الاستعمار .

- طبعا لا ، لكن لا تعني قابلية الاستعمار الرضى الداخلي به ، وإنما يمكن أن تكون الظروف المحيطة جاهزة للتهيئة له .

- إذن ربما نقول العوامل المساعدة للاستعمار وليس القابلية .

- وجهة نظر محترمة ، لكن لو تلاحظ أننا كشعوب رصيدنا التراكمي من الوعي يكاد يكون معدوما! وكم من كوارث قد تسببنا بها لأنفسنا .

- لا بأس فكل يبدي رأيه .

- لكني لم أسألك أيمن عن الكتاب الذين تقرأ لهم؟!

- أشربت في يوم ما عصير كوكتيل للفواكه؟

- أكيد ومن لم يشرب مثل هذا العصير اللذيذ؟!

- إذن أنا كذلك ، اقرأ كل شيء ولكل أحد من مفكرين وأدباء وتربويين وفلاسفة ، على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم .

- يعني ليس لك توجه معين!

- ربما تقولي أعمل توليفة خاصة بي سأسميها (التوليفة الأيمنية) ههههه .

- ههه ما أظرف هذه التوليفة .

- أظن أن الوقت قد حان للخروج .

- ما أسرع الوقت حين يكون في الثقافة وهمومها .

- أجل ، إذن نلتقي على خير .

- أيمن . .

- نعم أسماء .

- هلا تترك في هذه الأيام تعاطي الكحول . .

- لماذا؟

- ليس لأجلي ، لكن أريد أن أستفيد منك ، اعتبرني طالبة لديك ثم إن الجميع يحتاج إلى ثقافتك ، أتمنى أن تترك هذا الفردوس المزيف

- أسماء هذه خصوصيات ، أرجو أن تبتعدي عنها مثلما

أنا أبتعد عن خصوصياتك .

- أنا احترم خصوصياتك وأحلامك وآلامك صدقني ، لكن أرجوك لا أستطيع الحديث معك وأنت فاقد التركيز ، سأنتظرك في كل يوم في الفيسبوك لأستفيد منك ، إنه طلب صغير جدا .

- سأفكر .

- أنا مؤمنة بفكرك وقدراتك وقراراتك الصائبة .

- سأرى تصبحين على خير .

- السلام عليكم .

شعر بالعطش فالوقت مازال طويلا لوصول الطائرة ، ذهب ليشتري بعض الماء وبعض المأكولات الخفيفة الجاهزة ، وتذكر الأم وطفليها ، فأخذ شيئا لهم مما اشترى لنفسه ، وعند وصوله القاعة أعطاها فشعرت بالحياء والخجل ورفضت أخذه ، وباءت محاولاته بالفشل في إقناعها ، فأدرك حينها ان الأمر لا يخلو من الإحراج ، فنادى الطفل وأعطاه في يده ، وقال للأم إن لم يكن لك فللطفلين على الأقل ، خفضت رأسها والخجل يعلو وجنتيها وشكرته على ذلك ، ثم توجه إلى مكان انتظاره وشرب الماء وبدأ يقرمش بعض ما اشتراه من أكل . .

نقاش ونقاش
(الجزائر)

ذات مرة تقدم شاب لأسماء ففرحت والدتها كثيرا ، فطلبت أن تراه قبل أن تتجه الأمور نحو الزواج ، قامت بعض الصديقات بترتيب موعد بحضورهن ، فتفاجأت بالشاب فهو في قمة الوسامة والجمال وأثر الراحة يظهر على وجنتيه المتوردتين . .

- السلام عليكم (أسماء تدخل)
- وعليكم السلام (يرد الشاب)

يسود صمت عميق بين الطرفين وكل مطرق برأسه خجلا .

- عرفني بنفسك .
- اسمي جلال .
- أقصد سيرتك وهواياتك وفكرك .
- لدي شهادة جامعية في الصيدلة .
- وأيضا .
- أعمل في صيدلية في إحدى المؤسسات الحكومية .
- وماذا؟

- فقط . . وأريد أن أتقدم للزواج بك ، وحالتي المادية جيدة ولن أقصر بشئ تجاهك .

- ما رأيك بالثقافة أو بدقة أكبر هل تمارس القراءة!

- الثقافة جميلة .

- اذن أنت قارئ ومثقف .

- أجل بكل تأكيد .

- إذن أخبرني ما الكتاب الذي قرأته مؤخرا؟

(بدأ الشاب بالتلفت والتململ ، بعد أن شعر بالحرج ، وظهر ذلك على شكل غضب)

- أسألتك آنستي وكأننا نريد أن نفتح مشروع مكتبة وليس موضوع زواج .

- (تفاجأت من ردة فعله) ماذا تقول؟

- كما سمعت أنا لا أهتم بهذه التفاهات المضيعة للوقت والمال .

- لكنك قبل قليل قلت إنك تحب الثقافة والقراءة .

- أسحب كلامي ، لا أحب شيئا يسمى كتابا ، ألا تكفي سنوات الجامعة المضنية وقبلها المدرسة؟

تقف أسماء مودعة لصديقاتها وتخرج من فورها فأخذت إحدى الصديقات تناديها إلى أن وقفت :

- أسماء حبيبتي ما بك؟

- لا شيء .

- ألا تريدين أن تتزوجي كسائر الفتيات؟

- بلى أريد . . .

- إذن لماذا قطعت الحبل من أول لقاء؟

- اسمعي سوسن ، أنا لا أريد الزواج لأجل الزواج ، أو من أجل أن يقال أسماء تزوجت ، أليس من حقي أن أختار إنسانا راقيا بأخلاقه وثقافته ، وعلى دراية في بناء الأسرة وإخراج أجيال يخدمون مجتمعهم وأمتهم ، أنا أريد شابا أتشارك معه في الفكر والطموح ، إلى الآن لم أجده في هذا الشاب ولا في الذين قبله .

تسحب يدها من بين يدي صديقتها التي كانت تترجاها لتعود لكن دون جدوى ، وبينما هي عائدة إلى البيت رأت إحدى خالاتها في الشارع متجهة إلى بيتهم ، قالت في نفسها (لم يكن ينقصني غيرك يا خالة) :

- أسماء يا جميلتي هذا أنت (الخالة)

- السلام عليكم خالتي (تصافحها وتقبلها ثم تذهبان سويا إلى البيت)

منذ الوصول إلى البيت والخالة لم تسكت قط ، ومن أراد إسكاتها فلا يناقشها أبدا وإلا ستظل تعيد الحديث عدة مرات ، وهذا ما تفعله أسماء ووالدتها دوما ، في تلك الأثناء تذكرت فجأة النقاشات العلمية الجميلة التي دارت بينها وبين أيمن ، تذكرت ذات مرة حين احتدم النقاش بينها وبينه في

موضوع الصلاة ، وتذكرت كيف كانت قاسية عليه ، فقاطعته لأجل ذلك ولم تدخل معه في أي نقاش ولم تسأل عنه ، لكنها تدخل صفحته خلسة فتجد مدى تأثره بهذه القطيعة أو ربما تعلقه بإحدى الفتيات : -

- من بعدك أصبحت الوحدة قرينتي والعزلة صديقتي ، فمن يستطيع أن يملأ فراغ روحي التي تعلقت بك إلى حد الهيام .

- لو أن عقارا يباع للعاشقين يشفيني منك سأشتريه بكل ما أملك ، ماذا أفعل؟ فذكراك تحاصرني وتحاصرني أينما اتجهت ، حتى الهواء لا يدخل في صدري إلا وعطر اسمك فيه .

- الحقيقة التي لا أستطيع نكرانها أبدا ولا مفر منها أنك حركت المياه الراكدة التي في القلب ، ورفعت شراع المحبة لينطلق مركبي يمخر عباب الحياة ، وكل ذلك خلال فترة وجيزة بينما فشل غيرك في فعل ذلك .

- إذا انحنى القلب ليرشف من نهر حبك ، تساقطت دموعي في مجراه .

- حبي لك ما زال ثابتا قويا وسط عالم يمتلىء بالحركة والجنون .

- أيها الطير المهاجر آه لو يعلمون وطأة الحنين والشوق كيف سحقت كل شيء في جسدي .

- بعدك صرت أعد النجوم فأخطىء ثم أعدها فأخطىء ثم أيضا أعدها فأخطىء ، كل ذلك لأكذب على نفسي أني نسيتك بعد زعلك .

- جروحي لفراقك مازالت عميقة ، وكلما داويت جرحا سال آخر .

- الماضي يعذبني وفراقك يقتلني ، والمستقبل يهرب مني فأين المفر؟

كل هذه العبارات هزتها من أعماقها ، فعذوبتها وجمالها يحرك الأشجان ، وهذا الفتى المسكين يعاني من أمور في حياته ، ومن عزيز هجره ، ثم أقوم بالقسوة عليه وتركه على هذا الحال بدل أن اساعده ، لا ليس من أخلاقك يا أسماء (تحدث نفسها) .

تذكرت جلوسها المستمر في الأيام الماضية وفي الساعة نفسها لمحادثته ، جعلته وقتا مقدسا لديها ولديه ، فهي بعد ان تصل من عملها تجري لأجل التواصل معه وهو ينهي كل أعماله كوميض البرق ، كان وقتا ممتعا ومفيدا للطرفين ، وكل يهفو لمحادثة الآخر ، لكن أن تأتي فجأة لتقطع هذا الورد اليومي فهذا من أصعب المصاعب ، وبعد طول تردد أقنعت نفسها بأن تعاود محادثته وبدأت بالكتابة :

- أيمن هل أنت هنا! (وبعد ست دقائق جاء الرد)

- نعم أسماء أنا هنا .

- انا مدينة لك بالاعتذار على ما فعلته معك .

- كلنا مدينون بالاعتذار للحياة التي نحن نمارس معها دور الزائدة الدودية .

- ما هذا التشاؤم من الحياة يا أيمن؟

- ليس تشاؤما هي الحقيقة التي نحاول أبعادها عن أنفسنا .

- بالعكس أيمن الحياة جميلة إذا رأيناها بمنظار التفاؤل ، وهي سيئة إذا رأيناها بنصف الكأس الفارغة .

- أصبحت الآمال آلاما بها والآلام آمالا ميتة .

- إذن ما دامت هكذا الحياة لديك فلن أثقل عليك همك يكفي ما أنت فيه .

- لا انتظري أسماء لا أقصد أن أشعرك بذلك .

- أشعر أنك غير مرتاح لي ولحواراتي معك ، وربما كنت قاسية في نقاشاتي .

- بالعكس أشعر أنك فتاة طيبة وخلوقة ومخلصة لأفكارك وتوجهاتك بل ومؤثرة في الآخرين . .

- شكرا على هذه المجاملة والإطراء .

- لا لا أجاملك خذي مثلا على تأثيرك .

- ما هو؟

- لقد بدأت أصلي . .

- ما شاء الله أيعقل هذا أيمن؟!

- هي هذه الحقيقة ، ألم أقل لك انك مؤثرة ومخلصة . .
- بالعكس أيمن أنت من تمتلك قلبا صافيا ، لكن كان ينتظر من يزيل الشوائب عنه .
- ههه قلبا صافيا مرة واحدة ، ما اطيبك أيتها الفتاة أنت لا تعرفين عني شيئا بعد ولا تعرفين هذا القلب وما يحمله من أكدار ومصائب . .
- لكنه يبقى قلبا طيبا وصافيا يا أيمن ، لو لم يكن هذا صحيحا ما تركت شرب الكحول خلال الأيام الماضية! وما توجهت إلى ربك وخضعت لجبروته .
أيمن يقرأ حديثها فيتساقط دمعه بغزارة دون أن يستطيع الكتابة فقد غمر الدمع نظارته . .
- أيمن هل أنت هنا .
أيمن مازال ماسكا وجهه باكيا ، فهو لأول مرة تجري دموعه دون توقف .
- أيمن ماذا جرى لك؟ هل كان حديثي جارحا لك أو خاطئا!
مسح دموعه وخلع نظارته ليرى شاشة الكمبيوتر .
- لا أسماء حديثك شائق جدا .
- إذن ماذا حصل ، فقد مرت عشر دقائق وأنت لا تتحدث .
- لا شيء أسماء لا شيء .

كانت تشعر بأن خطبا ما قد أصابه ، وبأن شيئا قد أثر فيه لكن فضولها ليس له حدود .

- أيمن أرجوك ماذا حصل؟ هل أخطأت في حقك!

- لا لا شيء فقط أطلب منك أن تغيري الموضوع .

- لن أغير شيئاً حتى تخبرني ، تعرف أنت أني ملكة الفضوليين ، اعتبرني طالبتك ، تريد أن تتعلم منك ، لقد أقلقتني فعلا يبدو أني حقاً قد آذيتك في شيء .

- أرجوك كفي عن هذا الحديث قلت لا شيء لا شيء ، لماذا لا تتركين الفضول جانبا ولو ليوم واحد؟

- (أثر كلامه فيها) إني آسفة أيمن اعتذر لقد سببت لك المتاعب سأتركك الآن .

- لا انتظري أسماء فقط كانت . . .

- (تقاطعه) ماذا أيمن؟ حسنا لا داعي أن تخبرني يبدو أني فضولية إلى درجة كبيرة ووقحة

- لا أرجوك لا تقولي عن نفسك هذا فقط كنت . . .كنت أبكي .

- (شعرت بأن شعر رأسها قد وقف لهول ما فاجأها الأمر) تبكي؟

- (بتردد) نعم أبكي .

- ألم أقل لك يا أيمن إنك تمتلك قلبا طيبا يمتلىء بالإيمان .

- كفاك من هذا أسماء لا يصل قلبي إلى هذا الحد أنت

لا تعرفين شيئا عني ، فنحن ما زلنا في عالم افتراضي .

- بل تصل إلى أكثر من هذا الحد ، أتدري لماذا تبكي؟ إنها الذنوب التي تجمعت كلها في عينيك ، فتحولت إلى واد من الدمع حين سجدت لربك وسلمت له قلبك ليطهره .

- أنا لست سوى كومة من الأخطاء والذنوب المتكلسة ، وحماقات لا تغتفر قد تراكمت في غابر الأيام .

- بل أنت إنسان يمتلك قلبا شفافا وطيبا جدا لم يجد من يعتني به ، أنت . . .

- (مقاطعا) أرجوك أسماء كفي عن هذا (يصمت ثم بدأ يبكي مرة أخرى)

- إني أشعر بدمعك النازف ، أيمن أرجوك لا تمارس جلد الذات على نفسك ، كلنا نخطئ ونقترف المصائب ، لكن ربك أبوابه مفتوحة دائما وفي كل وقت وفي أي مكان ، وخير الخطائين التوابون .

- لكنك لم ولن تستوعبي ما قمت به ، لقد حطمت وأفسدت جيلا كاملا ، ناهيك عما فعلته بوالدي وبمن حولي!

- أيمن أرجوك أنصت إلي قليلا . . هل أنت معي الآن؟

- أجل اقرأ ما تكتبين .

- اسمع إذن لا بد أن تعلم أن الحياة مدرسة نتعلم منها الكثير ، نتعلم من أخطائنا لنبتعد عنها ، ومن صوابنا لنستمر عليه ، وأن تصل متأخرا خير من أن لا تصل ، وها أنت قد

وصلت وقلبك هو الذي اوصلك إلى بر الأمان .

- أنا في حالة توهان أسماء (يمسح دموعه التي لم تتوقف) .

- أنت الآن في حالة من الاستقرار الروحي الطبيعي صدقني ، استمر على ما أنت عليه وكن على ثقة بأن الله لن يتخلى عنك أبدا .

- حسنا (مازال الدمع في جريانه)

- والآن سأتركك لترتاح قليلا ، أريدك أن تطلق أساريرك كما عهدتك سابقا .

- حسنا .

- إذن نقول وداعا .

- أجل لكن أسماء انتظري لحظة .

- تفضل .

- لا أدري كيف أشكرك؟

- على ماذا؟ أنا لم أفعل شيء فهذا هو قلبك الطيب .

- إني أشعر بأن قلبي قد ارتاح لك كثيرا .

- يا سيدي شكرا لقلبك المحترم ، فأنا لم أفعل شيئا يذكر كما قلت لك سابقا ، أنت تمتلك جوهرة ثمينة لكنها كانت بحاجة إلى من يزيل ما علق عليها من غبار . . الآن سأتركك لأعمالك ومع نفسك ، السلام عليكم .

- وداعا أسماء .

- أيمن؟

- اعتنِ بنفسك جيدا .

- (يبتسم بانشراح صدر) حسنا أعدك بذلك ودمت بود .

بعد انتهاء المحادثة استلقت على السرير وأخذت تسرح بفكرها بعيدا ، تفكر بهذا الشاب الغريب والمجهول وما يمتلكه من طيبة وأخلاق ، وكيف أنه استجاب لحديثها خلال أشهر معدودة؟ إنه أمر محير أن تكون هذه الوسائل التواصلية يستطيع المرء بواسطتها تغيير نفوس البشر وبناء ما تحطم منها ، في أثناء ذلك دخلت عليها أختها الصغرى تسألها عن بعض الأمور الخاصة ، فبدأتا تتجاذبان أطراف الحديث .

اختلافات لا خلافات

بعد أن انتهت أسماء من صنع الحلويات في المطبخ اتجهت رأسا نحو جهازها لتفتح الفيسبوك ، فتجد منشورا جديدا لأيمن (لماذا يصر البعض أن يحصر الدين في السياسة؟)

بدأت بعدها في المحادثة الكتابية بعد أن استفزها المنشور :-

- أيمن هل أنت هنا؟

- نعم أنا هنا .

- كيف حالك؟

- الحمد لله وأنت كيف أحوالك؟

- تمام ، أريد أن اسألك أيمن؟

- تفضلي .

- لماذا يصر البعض أن يحشر الدين في السياسة؟ أنت من كتبت هذا أليس كذلك؟

- بلى .

- ألا ترى أنك تبالغ في الأمر؟

- وما وجه المبالغة؟

- كيف تطالب بفصل الدين عن الحياة العامة ومن ضمنها السياسية؟

- ولماذا ندخل الدين في السياسة؟

- لأن السياسة جزء من الدين الذي هو أصلا مجموعة من القواعد العامة وضعت لضبط طريق السياسة .

- إنه كلام عام ومرسل .

- ليس بالكلام العام ولا المرسل ، خذ مثلا الشورى هو مبدأ عام يمكن أن يكون بأوجه مختلفة وبأسماء متعددة ، لكن هدفه واحد في النهاية .

- ألا ترين ما فعله الذين أقحموا الدين في السياسة كيف شوهوه؟

- أرجوك أيمن أنت شاب مثقف ، نحن لا نتحدث عن سوء التطبيق أو عن الأشخاص ، انما حديثنا عن فكرة عامة ينبغي الإيمان بها ، فهل حين يجعل الدين حرية الفرد ومكانته والمساواة بين الناس يتناقض مع الواقع الذي ترغب فيه البشرية!

- طبعا لا .

- وهل حين يدعو الدين إلى كرامة إنسانية الإنسان والمطالبة بحقوقه والذود عنها يتناقض مع مبادئ الإنسانية؟

- طبعا لا .

- وهل حين يدعو الدين إلى ضرورة استشعار المرء

لمسؤوليته وواجبه تجاه وطنه وشعبه والإنسانية يتناقض مع خط الإنسانية؟

- لا

- إذن هذا هو الدين الذي تطالب بإقصائه عن الحياة العامة ، لا تحدثني عن الأشخاص ، أنا أعلم أن هذا السؤال يتردد في صدرك ، لكن أعطيك مثالا على ذلك من خلال عهد نبينا الكريم ، فقد كانت السياسة والدين توأمين .

- لكن لم تخبريني أي دين نطبق في السياسة؟

- طبعا الإسلام .

- أقصد أي مذهب من المذاهب المنتشرة ، هل بالدين الإباضي أم السني بفروعه أم الشيعي بمذاهبه أم ماذا؟

- سؤالك في غاية الأهمية رغم استنكاريته ، أعلم أن الأمر صعب أن يفهم .

- هذا هو الواقع أسماء ، فالكل يدعي أنه هو الصحيح ، وكم من البسطاء أبيدوا عن بكرة أبيهم بسبب هذا الفكر الأيديولوجي .

- أنا أتفهم حديثك تماما ، لكن أعيد وأكرر بأن الخطأ في التطبيق وفي البشر وأما المذاهب والتيارات التي تفرعت وزادت في الدين هي صيرورة صحية ، تدل على الأفق المفتوح وعدم الجمود في الاجتهاد ، لذلك تتملكك الدهشة حين ترى المؤلفات الكثيرة والاجتهادات المتنوعة في المسألة الواحدة ،

لكن أيمن انتظر لحظة أنت دائما تثني على الخطاب العلماني ، وتقول إنه الحل للناس ، أليس كذلك؟

- أجل .

- ألا ترى أن العلمانية هي جملة من الترقيعات أتت بها نخب مستغربة منفصلة تماما عن الشعوب التي تحكمها وعن خطابها الحضاري ، بدلا من كونها متطلبات موضوعية بل ونتائج موضوعية لجملة تحولات .

- يا أسماء لماذا دائما تهاجمين العلمانية التي تدعو إلى أن يجعل المرء دينه في قلبه بدل هذه التعصبات والطائفية المقيتة التي استباحت دماء المسلمين ، ثم إن حاضر العرب وتاريخهم الحديث قد شهد جملة من التحولات البالغة العمق والسعة ، تحولات طالت حيزات المجتمع الأهلي والسياسي ، وتركيبة الدولة والنظم القانونية ، والأدب والفن والثقافة بعامة ، فضلا عن التربية والحياة العقلية ، كل هذا يحتاج انطلاقا إلى الأمام ، وأن لا نترك أجدادنا يحكمون واقعنا من قبورهم ، وكل ذلك باسم الدين والإيمان ، إنه خطاب يرجعنا مئات السنوات إلى الوراء ، بسبب هذه العقليات المتحجرة في أفكارها بينما العالم مستمر في التقدم كل ساعة بل كل دقيقة .

- أيمن ألم تلاحظ ، من خلال مطالعاتك أن العلمانيين يذهبون في خطابهم إلى المنحى التسفيهي مع من لا يتفق معهم ، وهذا يبدد الجهد الفكري في الحوار وأهدافه ، فهم أيضا

لديهم تطرف فكري في الطرح . .

- لا هذا غير صحيح .

- إذن ماذا تسمي الكلمات التي ذكرتها أنت بنفسك العقليات المتكلسة ، يحكمون من قبورهم ، وهذا الخطاب يرجعنا مئات السنوات إلخ . . . . .

- هذا هو الواقع .

- للأسف أيمن ما تذهب إليه هو التوجه نفسه للعلمانيين المتطرفين ، فهم يحاولون دائما اختزال ما لا يروقهم إلى هذه الصورة المعلبة والمقززة والكاريكاتورية ، الأمر الذي يسير عليه إصدار الأحكام وأخذ موقف منتصر متعال ، لقد مللنا من هذا الخطاب الذي حكمتنا به أنظمتنا العربية لعقود طويلة ، والذي يتحدث ساخرا عن المسلم العادي والبسيط ، والذي غاية طلبه الخبز ولا يعطى إلا الإيمان الذي لا يشبعه لفترة طويلة ، ثم يعرف الإيمان بأنه (أفيون) وهو حديث ناتج أصلا عن رؤية مادية اقتصادية Economistic اختزالية سادت في القرن التاسع عشر في أوروبا لم تدرك مدى تركيبة الأبعاد الإنسانية وتداخلها ، فسقطت في هذا الخطاب الاختزالي الذي يحول الإنسان إلى ظاهرة كمية أحادية البعد ، يمكن رصدها والتنبؤ بسلوكها ثم التحكم فيها ، إن المسألة ليست بهذه البساطة ، فمن يعرف النفس البشرية وما تهفو اليه من إيمان سيعلم ما المقصود من ذلك .

- أسماء هل لي بطلب .

- أجل تفضل .

- اريد منك ايقــاف النقــاش الآن ؛ لأني مــضطر إلى الانسحاب لظرف خاص .

- تفضل .

- أسماء .

- نعم أيمن .

- لا ادري لدي شعور إيجابي تجاهك .

(تصمت عن الكتابة دون أن تكتب شيئا ، فقد فاجأها بقوله)

وللقلوب أحاديث
(الجزائر)

جاء بعض النساء لزيارة والدتها ، وبعد أن أحضرت الحلويات جلست بالقرب من أمها وهي تستمع للأحاديث المتنوعة التي لا تمل منها النساء ، لكن تشعر بأن قلبها صار قنديلا معلقا مع قنديل آخر في فناء الحب الطويل ، كانت ترقب أفواه النساء من حولها وسرعة حديثهن ، لكن لا تسمع صوتا سوى صوت الأعماق ، هناك صدى وصوت يتنافسان في داخلها ، تسمع وشوشة وتأوهات ، تسمع أسماء كثيرة لكنها لم تع شيئا منها سوى اسم أيمن يتردد بين الصدى والمناداة ، تذكرت حديثها معه في الليلة الماضية :

- أيمن هل أنت هنا . . . (تكتب بتردد)
- نعم أسماء تفضلي .
- هل أنت تحترمني .
- (باستغراب) أحترمك؟
- أجل .
- ولماذا هذا السؤال المفاجئ؟

- لأتأكد من صدق مقولتك في الحادثة الماضية .

- أسماء وهل يسأل القلب هل هو يسكن في الجسد أم خارجه ، أنا لا أحترمك فحسب بل . . . . (يصمت عن الكتابة) .

- ماذا . .؟

- ولكن ماذا؟

- ولكن أحبك . .

تصمت لدقائق من هول الكلمة وجرأتها ، وأخذت تتحسس قلادتها التي حول عنقها والحيرة تمضغ فؤادها ، والمفاجأة أدارت برأسها فصارت تخلط بين الجهات الأربع .

- ماذا قلت تحبني؟

- أجل أحبك ولا أبالي إن كنت أنت غير ذلك ، لكني أحبك بالفعل .

- لقد فاجأتني بهذا الأمر فلم أكن أحسب له سابقا ، لقد أربكتني لكن ما الدليل الذي يوحي بأنك تحبني ونحن أساسا في عالم افتراضي .

- لا دليل لدي سوى هذا القلب الذي يتحدث الآن إليك . .

- وما الأدلة التي يقدمها ذلكم القلب؟

- أدلته ما يخرجه من أحاسيس وينطقها لسانه ، يقول ومازال يقول حين تركت هذا المتيم بك في الأيام الماضية :

- أنا والليل والنجوم والقمر افتقدناك وضاقت قلوبنا إثر بعدك ، كل شيء بعدك لا قيمة له ولا طعم ولا رائحة

ويقول :

- الجميع يتحدث من حولي وتعلو أصواتهم ، وتحتد المناقشات وتتمدد الكلمات ، لكنني لا أرى سوى أفواه تتحرك ولا أسمع إلا صوتك الملائكي ، الذي يلقي في القلب الطمأنينة ليعطي هذا الجسد الطاقة الكامنة ؛ ليخوض معارك الحياة وبانتصارات مؤزرة .

ويقول :

- حبي لك يا أسماء نجم معلق في السماء ينير دروب العشق السالكة إلى جنتك .

ويقول :

- كنت كمن كانت حياته إغفاءة طويلة قبل هيامي بك ، وبعد أن دخلت عالمك صحوت في جنة فيها كل ما لذ وطاب من الحضرة الخلودية في الحب .

ويقول :

- كم بحثت عنك طويلا يا أسماء خلال السنين الماضية ، بحثت عنك في كل زمان ومكان ، وفي الكتب والسير وفي عقول الناس ، وبعد أن بدأ اليأس يدب في عروقي وأعماقي إذا بك تظهرين لي فجأة لتنيري ردهاتي المظلمة . .

ويقول :

- أيتها البعيدة جسدا والقريبة روحا ، لو تدرين بلهيب الشوق في صدري إليك . . آه ما ألذ ذكرك وما أطيب خيالك . .

ويقول :

- قد يحصل الحب بعد أن تعجب العيون بالعيون ، وجمال الوجوه ، بالوجوه لكن كل هذا ربما يذبل ويتغير ويفنى في لحظة ما ، لكن ما يخلده الزمن حين ينمو الحب بعناق الروحين معا ؛ فتندمج خلايا الجسدين وتسبح القلوب في محراب الحب . .

- (مقاطعة له) أيمن يكفي أرجوك .

تخرج فجأة من المحادثة ، أخذت تبكي طويلا وهي تشعر بوخز في قلبها منذ فترة ، لكنها لا تعرف معناه أو مصدره :

- أيعقل يا أسماء أن تقعي في الحب وأنت من تكونين الناصحة لصديقاتك؟ أيعقل أن تتورطي بهذا الأمر وأنت من ينادي أن الحب بعد الزواج وما قبله ليس سوى رومانسيات مراهقة وفارغة! ما هذه الورطة التي وقعت فيها؟ إن الشاب قد تعلق بك فعلا ، لكنه لم ير حتى شكلي وصورتي الحقيقية ، إنه يتعلق بسراب (تحدث نفسها)

ترجع مرة أخرى إلى الفيسبوك فتجد أنه قد كتب حين غادرت المحادثة الكثير من الاستغاثات والتأوهات :

- أسماء أين ذهبت؟ أرجوك لا تذهبي عني .

- كم كـان ليلي حـزينا بدونك يا أسـمـاء حين تركـتني لوحدي ، وكم كان القلب كسيرا ببعدك ، وها أنت تزيدين من تشظيه ، فشكرا على مشاعرك تجاهي . .

- (بعد تردد قررت محادثته) أيمن هل أنت هنا؟

- أيمن أرجوك انتظر أنا هنا اين ذهبت؟ أريد محادثتك اني أعـتـذر على خـروجي المفـاجئ ، فـقـد كـان لكلمـاتك أثر في نفسي .

كانت الدموع تملأ عينيه وهو يرى رسائلها رغم حزنه على تركها له فجأة ودون أسباب ، عندها قرر غلق جهازه والذهاب إلى الشاطئ ، هناك حيث البحر العظيم الذي لا يخونه ، وذلك الصديق القديم الذي لا يتخلى عنه ، أخذ ينظر إلى البعيد حيث الماضي والمستقبل ، رجعت كل الذكريات التي عاشها في الماضي حيث الألم والحسرة ، تذكر الماضي السحيق الذي كان جميلا مع أصدقائه الذين فارقوا دنياه ، تذكر والديه اللذين غادراه وحبهما له ظل نهرا لا ينضب ، تذكر الطفولة وشقوتها ، تذكر الدروب الضيقة في القرية والزوايا المنثلمة إثر المطر لبيوت الطين ، كل ذلك زاد من هواجسه وهمه ، أراد أن يدخل ذلك كله في بوابة المستقبل ليعيد ترميمه من جديد مع الحب الذي غرق في عسله اللذيذ ، لكن البوابة كانت مغلقة تماما ، كان ينظر إلى القمر وهو يسقط في البحر فشعر أن نفسه هي التي تسقط في متاهات العذاب ، لكن القمر أخذ بالارتفاع شيئا

فشيئا وكأنه يقول لا بأس أيها البحر لا تراجع عن السماء ، لا ضعف أمام الشمس ، لا انكفاء أمام المعالي ، لا تراجع عن القمة ، أخذ ينظر إلى القمر باندهاش وكأنه يرى المنظر لأول مرة في حياته ، رغم أنه قد مر عليه مرارا .

انتظار
(عمان)

بعد ثلاث ساعات ، وبعد أن مر الوقت بطيئا على المنتظرين ، جاء الخبر كالصاعقة ، حين علموا أن الطائرة ستتأخر وقتا إضافيا ربما يعادل الوقت السابق ، تذمر الجميع وبدأ يسري الغضب لدى البعض والوجوم والحزن لدى الآخرين ، أما أيمن فلم يشعر بشيء من ذلك ، فهو ما زال غارقا في ذاكرته ولم يدر بما يحصل حوله حتى سمع صراخ البعض واحتجاجهم فعلم الخبر ، حينها شعر بضيق وحنق لكن ماذا سيفعل؟ فهناك بعض الأمور لا يستطيع المرء أن ينشب أظفاره فيها ويجذبها إليه بالقوة ، خرج من ذلك السجن الذي يسمى قاعة انتظار وذهب يبحث عن كأس شاي يشربه ، وبعد أن افرغ كأسين من الشاي في جوفه وهم بالرجوع تذكر ذلك الطفل وأمه والرضيع ، فأخذ بعض السكاكر والمأكولات والعصائر ، رغم علمه برفض الأم أن تأخذ شيئا من أحد ، كما فعلت سابقا ، لكن ظروف الموقف يتطلب ذلك ، فالليل مازال طويلا والطائرة ستتأخر ، ثم رأى كرة صغيرة فأخذها للصغير حتى يفرغ طاقته الكامنة فيها ، وحين ناول المرأة أخذت تنظر إليه

بإحراج شديد وهي تمسك طفلها ، فمدت يدها إلى حقيبتها الصغيرة لتخرج شيئا ما ، واذا بها تخرج نقودا لتعطيه .

- خذ لا يعقل أن تشتري لنا دون مقابل .

- ما هذا؟

- نقود لا يعقل منذ أكثر من ثلاث ساعات وأنت تشتري لي ولابني دون مقابل .

- (يبتسم) لكنني لم أطلب نقودا يا أختي .

- أرجوك خذ أنا لا أحب أن يمن علي أحد بشيء .

- إنها ليست منة مني حاشا لله .

- إذن خذ النقود أو خذ طعامك (الصغير يمد يده إلى الأكياس فيخرج الكرة وهو سعيد ، ويخرج بعض السكاكر ويبتعد عن الأم)

- تعال يا أفلح إرجع ما أخذت .

- أختي أرجوك اعتبري هذا هدية للطفلين على الأقل .

- أنا أرجوك فزوجي لن يعجبه هذا الأمر .

- لا بأس أنت الآن تريدين إعطائي مقابلا لذلك .

- نعم .

- أنا أريد مقابلا لكن لا أريد نقودا!

- ماذا؟ (يظهر الارتباك والاستغراب على وجهها)

- أريدك ان تسمحي لطفلك أن يجلس بقربي ، فأنا أحب الأطفال .

- (تبتسم) هذا هو المقابل!!

- لا لم يكتمل بعد!

- ماذا أيضا؟

- أريد دعاء لي منك في الأمر الذي أنا ذاهب لأجله ؛ فيظهر أنك امرأة صالحة .

- وفقك الله وسدد خطاك .

يذهب أيمن إلى مكانه بعد أن أقنعها وهو ينادي الطفل ليكون قريبا منه ويلبي نداءه ليذهب بقربه ، بينما كل الحضور كانت أعينهم تبحلق في أيمن وعلامات الإعجاب والتقدير بادية على محيا تلك المرأة على شهامة وطيبة هذا الشاب ، تذكر وهو يلاعب الطفل بالكرة الصغيرة الحديث الحاد الذي حصل بينه وبين أسماء ، فبعد شهرين من التعارف استمرت المحادثة يوميا بين الطرفين ، وكانت تستهلك الليل كله ، سألته ذات مرة :

- أيمن هل تحب الأطفال!

- ولماذا هذا السؤال؟

- فقط أردت أن أقول إني أحبهم كثيرا .

- اذن هنيئا لك بهم وهنيئا لهم بك .

- لماذا أنت جاف إلى هذه الدرجة؟ فهذه مخلوقات جميلة .

- وكيف حكمت علي بذلك؟

- أســألك عـن الملائكة الصــغـار التي تمشي على الأرض فتجيبني برعونة!

- وما دخل هذا الأمر في نقاشاتنا العلمية .

- أسـألك - بالله عليك - ألا تمتلك شيئا من الإحـسـاس والعاطفة تجاه الآخرين ، حتى الأطفال لم يسلموا من قسوتك .

- أسماء!

- نعم .

- يبدو أني سأنسحب عنك وسأتركك أنت والأطفال .

- انتظر أيمن لم ننته بعد .

- دمت بود .

- أيمن . . . أيمن .

تذكـر تلك الليلة التي قطع مـحـادثته عنهـا ، كـانت أشـد قسوة عليه ، حاول أن ينسى لكن دون جدوى ، كان يردد بيتا شعريا طوال زخات الليل :

هل ليلتي غير الليالي! أو أنا .

غيري . . . أكاد الآن أنكر ذاتي .

قرر في نفسه أن لا يحادث هذه الفتاة التي يراها مغرورة ، وتتـدخل في مـا لا يعنيـهـا ، وفي الصبـاح ذهب إلى عـمله وانهـمك فيـه ونسي ما هو عليه ، بعـدها رجع إلى البـيت وهو يحاول نسيان كل شيء ، لكنه حين اختلى بنفسه تذكر تلك الفـتاة ، لا يعلم مـا حل به مع أنه لم يرها يومـا ، ومن يدري ربما

أحد الرجال أراد أن يصنع مقلبا له ويتظاهر أنه فتاة ، وبدأ الليل صعبا عليه وهو يناجيه ، ما أصعبك أيها الليل بدون حديثها ، وما أقساه من غير همسات روحها ،كان التردد سيد الموقف لكنه في منتصف الليل ، قرر محادثتها :

- أسماء هل أنت هنا .

لم تجبه وظل ينتظر طويلا عل جوابا يأتيه منها .

- أسماء أتوسل إليك أجيبيني أريد أن أعتذر لك .

- (بعد نصف ساعة) أهلا أيمن كيف حالك؟

- بخير ، لكن ارجوك أنا أعتذر جدا .

- لا بأس أتفهم الأمر ، لكن لا تضيع وقتك معي ، فأنا لست سوى فتاة تتدخل في أمور الآخرين وتمارس فضولها القاسي .

- لا تقولي هذا سيدتي ، بالعكس أنت فتاة طيبة تحبين الخير للناس .

- أنا أعتذر ربما كنت ملحاحة في سؤالي .

- بل أنا كنت قاسيا وسأجيبك بكل صدق .

- لكن قبل إجابتك أود سؤالك هل صليت العشاء .

- في الحقيقة لا .

- هل ستصليها الآن . . سأنتظرك .

- سأصليها غدا .

- هل تضمن أنك ستعيش إلى الغد!

- طبعا لا .

- إذن أرجوك أيمن بعهد العلاقة العلمية بيننا اذهب وصلِّ .

- حسنا سأذهب ، أنتم معشر المتدينين لا تهتمون سوى بالشكليات .

- لن أجادلك الآن ، فقط اذهب من فضلك وصلِّ وأنا في انتظارك .

يخرج من المحادثة وكان محتارا هل ينتظر دقائق ويتظاهر أنه قد صلى ، لكنه وعدها بذلك ، أخيرا قرر أن يصلي وبعد الدقائق العشر التي استهلكها بين الوضوء والصلاة والشعور بالسكينة .

- أنا هنا أسماء .

- أهلا بصاحب القلب الطيب والطاهر .

- شكرا يا له من اطراء جميل!

- أنا متأكدة أنك صليت .

- وكيف عرفت أيتها الساحرة؟

- لأن لديك إرادة نحو التغيير .

- ما أكبر هذه الكلمة علي وما أجملها أيضا .

- هذه الحقيقة أيمن فقد كان والدي دائما يقول إذا أردنا إنجاز شيء فلا نستطيع إنجازه إلا بالإرادة ؛ لأنها هي التي تنقل الإنسان من القول إلى الفعل ، ولا توجد من فروق بين المتميز

والفاشل إلا بالإرادة فهي التي تبث الحياة والقوة في عروقنا .

- إن كان كما قلت فقد جاءت هذه النار في الإرادة من الشرارة التي أوقدتها أنت .

- أنت تمتلك هذه النار المقدسة وأنت من أشعلتها ، قلت لك يا أيمن أنت شاب غير عادي .

- وأنت أيضا فتاة غير عادية!

- بل عادية جدا وبسيطة إلى أبعد الحدود .

- إذن أنت لا تستمعين للرأي الآخر ، يعني لا تحبين الديموقراطية (مداعبا لها)

- على عيني الرأي الآخر ، وأنا أؤمن قبل بلورة الديموقراطية بمقولة في الأثر الإسلامي (رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيك خطأ يحتمل الصواب) يعني الرأي والرأي المخالف .

- ألا ترين أن شعوبنا لا تستحق الديموقراطية ، فهي لا تتحرك إلا بالديكتاتورية وحكم العسكر ، ففي حضور الطغاة لا وجود سوى للطاعة العمياء .

- لأنها لم تتنفس عبق الديموقراطية يوما ، لو تركت لها الفرصة كسائر الشعوب وسنحت لها الأوقات لأبدعت وتعاطت الديموقراطية ، ولأضحت مثالا حيا للديموقراطية .

- لكن أرى أن مجتمعاتنا العربية ما زالت تحبو كالأطفال ، وهي غير مؤهلة لذلك ، فالديموقراطية أسلوب حياة ونظام تربوي

لا بد أن يتربى عليهما جيل لتنمو وتتطور وتتجدد .

- كلامك صحيح ولا غبار عليه ، لكن لتترك الفرصة لهذه الشعوب فهي ستبدع كما أبدع أجدادهم بدل إعطائهم شهادة الميلاد بيد وأخرى للوفاة بيد أخرى .

- ذكرتني بقول أحدهم : : يعلل النفس بأجداده . . . وبآليات المجد من دولته .

- أرجوك أنا لا أقدس الأجداد لكن أحترمهم ، وذكر حسناتهم على الأقل من باب رد الجميل لهم .

- لا بأس كنت أستفزك فحسب ، لكن الأمل يبقى هو الشمس المضيئة التي ننهل من نورها ومع الأمل يضحك العالم من جديد .

- أجل هذا هو أيمن الذي عرفته من بداية اللقاء ، لكن أخبرني ما قصة كتابتك في صفحتك (سيقولون لا أحبك ، لا تصدقيهم ، فقلبي كثير الجراح ببعدك ، وطعم الحقول وريح الزهور في جنباتي هامت بقربك ، لا تصدقيهم ، فنار الطفولة والشباب هدأت بكفك واستنشقت عبير عطرك ، لا تصدقيهم . .) من هؤلاء الذين يكذبون عليها يا ترى؟ ومن هي هذه صاحبة الحظ الجيد معك؟

- أتعرفين أسماء بعد محادثتك وعند طلوع الفجر أشعر أن خيوط الشمس تتراقص أمام عيني ، في كل صباح جديد فأدرك أن الأمل مازال موجودا في كل شيء .

- إنه الشعور نفسه لكن لا تتهرب من الإجابة . . .

- أية إجابة؟

- من هم؟ ومن هي؟ اعتبره فضولا استثنائيا لي .

- هم الناس .

- وهي؟

- هي . . . . . . أنت (تشعر بالارتباك)

- أيمن أنا مــضطرة للخــروج الآن حــصل ظرف طارئ ، السلام عليكم .

أقفلت المحادثة كعادتها وأيمن يضع يده على قلبه خوفا من ردة فعل كبيرة حين قالها ، لكن لا بد أن تعرف بأن نظرته إليها كإنسان عادي إلى إنسانة عادية أصبحت نظرة غير عادية .

بعد اغلاقها للمحادثة ظلت أياما لا تدخل الفيسبوك ، وازداد قلقه عليها كثيرا فهو لا يمتلك أية طريقة للتواصل معها ، بعد يومين اتصل به أحد أصدقائه القدامى ليدعوه لجلسة سمر ، لكنه اعتذر فقد هجر الكحول وما يتبعه من أقاصيص الغرام ، ظل طيلة تلك الليلة وهو يسترجع حديث أسماء ، وكم قطرت عيناه كالمزن دموعا ، فلجأ بعدها للوضوء فصلى ركعتين تنفلا وظل على سجادته يستغفر ويدعو الله تعالى ، وفي اثناء ذلك تذكر حديثها : -

- يا أيمن إذا اتسخ ثوبك فلن ينظفه أن يغسل جيرانك أثوابهم ، وإذا زاغ فكرك ، فلن يصلحه إلا أن يهتدي هو إلى

الصواب واستحقاق الرضوان الأعلى ، لا يجيء إلا من هذه السبيل ، فلا قرابين ولا شفعاء ، والخطأ في حق الله لا يداويه إلا اعتذار المخطئ نفسه ، فلو اعتذر عنه أهل الأرض جميعا وفي مقدمتهم النبيون ومن سلك مسلكهم ، وبقي هو على عوج نفسه فلن يقبل عنه اعتذار ، ولن ينفعه استغفار أو شفاعة ، لا بد أن تجثو يا أيمن في ساحة الرحمن ثم تهتف من أعماق قلبك (رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) .

تذكر حديثها حين قال لها : الحياة مازالت طويلة وهنا متسع كبير لمراجعة الأخطاء :

- أيمن لا تعلق بناء حياتك ومراجعة أخطائك على أمنية يلدها الغيب ، فإن هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير ، ثم إن كل تأخير لإنقاذ منهاج تجدد وتغير به حياتك وتصلح به أعمالك لا يعني إلا اطالة الفترة الكابية والهامدة التي تبغي الخلاص منها ، وبقاؤك مهزوماً أمام نوازع الهوى والشهوات والتفريط بل قد يكون ذلك طريقا إلى انحدار أشد .

- لكن هناك الكثير من الناس من حولي حالهم مثل حالي وربما أكثر .

- دعك من الآخرين لن ينفعك أحد سوى أنت فقط ، صدقني يا أيمن ما أجمل أن يعيد الإنسان تنظيم نفسه بين الحين والحين وأن يرمم ما تهدم ، وأن يرسل نظرات ناقدة في جوانبها ليتعرف عيوبها وآفاتها ، وأن يرسم السياسات القصيرة

والطويلة المدى ليتخلص من هذه الهنات التي تزري به ، انظر إلى الأثاث في غرفتك ، إذا ترك دون تنظيف وترتيب كيف ستتراكم عليه الأوساخ والفوضى ، ألا تستحق حياتك مثل هذا الجهد؟ ألا تستحق نفسك أن تتعهد شؤونها بين الحين والحين لترى ما اعتراها من اضطراب فتزيله ، وما لحقها من إثم فتنفيه عنها ، مثلما تنفي القمامة من الساحات الطهور؟ ألا تستحق النفس بعد كل مرحلة تقطعها من الحياة أن نعيد النظر فيما أصابها من غنم أو غرم؟ وأن نرجع إليها توازنها واعتدالها كلما رجتها الأخطاء والأزمات ، إنك يا أيمن أحوج الخلائق إلى التنقيب في أرجاء نفسك . . (تذكر حديثها وعيونه غارقة في دموعها) .

ذكريات من المجهول إلى الواقع
(الجزائر)

كان كل طرف مندهشا كيف تفاعلت الظروف ليلتقي القلبان ، أخذ كل طرف يفكر بتلك الذكريات الأولى ، ففي الأشهر الأولى مضت الأيام دون أن تتحدث أسماء إلى أحد من أهلها ، كانت تدعى إلى العديد من المناسبات للمشاركة فتذهب لكنها ملتزمة الصمت ، كان الجميع يتحدث ويحكي لكنها لما تزل سادرة في محراب صمتها ، تفكيرها بأيمن وكيف أنه شغوفا بحبها وهي تختزل شخصه بأنه مثقف ليس إلا ، أخذت تتذكر حديثه الرقيق وتعلقه بها ، هي رأت صورته في ملفه التعريفي لكنه لم ير صورتها ، كان دائما يقول : فلتكوني بلا لون أو عجوزا شمطاء او سوداء لا يهم ، ما يهمني تلكم الروح الجميلة التي تحملينها .

- هذا الشاب الطيب كان يحمل حبا عميقا في قلبه لي وأنا أتجاهله (تحدث نفسها)

بعد أسبوع دخلت الفيسبوك وهي تقول في نفسها لربما كانت عاطفة عابرة وانتهى كل شيء لكنها بمجرد أن فتحت

الفيسبوك وجدته قد كتب كلاما يقطر حبا ولوعة نحوها : -

- يا فتاة السماء الطاهرة ، بحثت عنك بين الجداول والقصور والزهور والدموع ، بحث عنك في السهول والجبال والوهاد ولا أثر لعطرك ، بحثت عنك في المسافات الطويلة والمطارات الكبيرة والشوارع الممتدة وأضيق الطرق في الريف ، فلم أجدك ولم أجد وشاحك الأبيض الذي تحبينه فأين أنت؟ غيابك هيج مشاعري وزاد من لواعج القلب وفجر ينابيع الشجن وكسر أشرعة الروح ، يا ذات العيون الكحيلة كل ما في الجسد الهزيل يلهج بحبك ، كم كان ليلي حزينا بدونك ، وكم كان القلب كسيرا ببعدك ، قلت لك ذات مساء لا تأخذي القلب في زوادتك حين تبتعدين ؛ لأني أغدو بين الموت والحياة بمثابة شعرة آيلة إلى الانقطاع ، أنا والليل والنجوم والقمر افتقدناك يا أسماء وضاقت النفس إثر بعدك ، كل شيء بعدك لا قيمة له ولا طعم ولا رائحة . . أتذكرين حين جرى الهواء حاملا صوت الحمام في عتمة الليل ونحن نتعاطى كؤوس الحديث في مكالمتي لك ، قلت لك حينها إني أسمع صوتا شجيا ، لم يعد ذلك الصوت يظهر بعدك ، عودي فالجميع ينتظرك وأنا قبل الجميع يأكله الشوق لتعودي . . أنا أنتظرك . .

أغلقت صفحتها وأخذت تبكي طويلا ، ثم رجعت مرة أخرى لتفتحها وكتبت :

- أيمن أنت هنا؟

- أجل أنا هنا وأنتظرك منذ أيام وفي كل ساعة ، بل في كل لحظة .

- أنت تدري ببعد المكان واختلاف البيئة والعادات ، كنت أقول - وأرجوك لا تنزعج - ربما أيمن أعجب بي فعلا لكن هناك فرق بين الإعجاب والحب ، أنا لا أقلل من مشاعرك لكن . . .

- لكن ماذا؟ . . لم هذا التشكيك في مشاعري؟

- أنا لا أشكك أريد أن أوضح لك أن الحب يحتاج إلى تضحية كبيرة ، والى صبر أكبر ، فظروفي ليست بالسهلة وتنائي المكان في ما بيننا يمثل هاجسا كبيرا .

- ومن قال لك اني لا أريد أن أضحي لأجلك؟ وكيف لا أضحي لأجلك وأنا الذي لا ينام ولا يصحو الا بذكرك ، وقلبي يمتلىء لك بالحنان والمحبة ، أتدرين أسماء أن موج البحر حين أراه وهو يتدافع أسمعه يهمس ويتناغم همسه مع تدحرجه ؛ فيصل إلى الرمل ويظل ذلكم الهمس يتسربل إلى الصدف المتناثر على الشاطئ الجميل ، أتدرين ماذا يقول إنه يقول (أسماء . . أسماء) ، أتدرين أسماء لقد أتيت من زمن غابر مكفهر الأحداث تشابكت أيامه وتصاعدت آلامه ، كنت أقول هل من بلسم يعالجني ويشفي جروحي بعد كل تلك السنين ، وإذا بك أنت الكائن الملائكي الرائع تصنعين بلسما نورانيا لهذا القلب المتصدع ، فتلتئم جروحه وتتسامى طموحاته وتشرئب

إلى المعالي عروقه ، وتتحول إلى تسابيح في محرابك أناته ، لماذا تظنين أني لست مستعدا للتضحية لأجلك ، وأنت من نثرت بذورا في أرضي اليباب القاحلة ، فأثمرت حبا عظيما وياسمينا فاقع البياض ، أنت من شمسك أشرقت على كهوف ظلمتي فطهرتها من كل آسن وأنارت اعماقها ، أنت من انتشلت قلبا ميتا ليعود مرة أخرى إلى الحياة .

- أيمن أرجوك توقف (خرجت من المحادثة الكتابية وهي تبكي)

ظل أيمن ينتظر رجوعها فأخذ يلوم نفسه ، فربما أسرف كثيرا في التعبير عن مشاعره فشعر بالندم حيال ذلك ، لكنها تعود مرة أخرى إلى المحادثة :

- أعتذر منك أيمن

- أنا الذي أعتذر يا سيدتي فربما أسأت الأدب .

- لا أرجوك أنت لم تقل سوى ما يمليه قلبك ومشاعرك .

- أقسم لك بأني لم أعبر بعد عما أكنه لك في قلبي ، فهذه ليست سوى قطع صغيرة من بناء حب شاهق .

- إني أشعر بشعورك ولا أقول سوى . . .(تصمت دقائق ثم تعاود الحديث مرة أخرى) الله يبقي لي هذا الحب الكبير الذي في قلبك .

- أتعرفين أسماء كيف كانت ليلة البارحة لدينا؟ وكيف أصبحت جزءا من كياني؟

- كيف؟

- في تلك الليلة كان قمرنا بدرا يتقاطر لونه على البيوت العتيقة والأجساد النائمة ، ومن خلال تلك اللوحة الجميلة تذكرتك . . . . . . وحين تشابكت السحب في كبد السماء وغطت وجه القمر الجميل ، وحلت الظلمة بجيوشها الجرارة ، وبعد حين بدأ الرذاذ يطفئ ظمأ الطفولة ، فخرج الجميع ليأخذ من تلك الرشفات العذبة فتذكرتك ، وفي الصباح استيقظ القوم وبدأ الكل يتحسس المواضع التي سقاها ذلكم الغيث ، وأخذ كل فرد يعود لعمله وبدأت عجلة الحياة تدور من جديد ، أيضا تذكرتك وتذكرتك .

- ياه كل ذلك لأجلي ولذكراي .

- هذا لا يعبر عن مكنونات دواخلي إلا بالشيء اليسير .

فجأة يرن هاتف أسماء ، إنه رقم غريب ، أخذت تفكر هل ترد عليه أم لا؟ نظرت إلى المحادثة في الحاسوب ، فإذا برسالة أيمن :

- كأنك مشغولة بالهاتف؟

- كيف عرفت؟

- لأني أنا المتصل ألا تذكرين أنا تبادلنا الأرقام ، لكن لم نتجرأ أن نسمع اصوات بعض .

- أحقا أيمن أنت المتصل؟

- أجل وإني في قمة الارتباك والتلهف!

- إذن ماذا تقول عني أنا حيث أضحى جسدي يرتجف ويتصبب عرقاً .

- لا بد أن نكسر ارتباكنا ، ها أنا أغلقته فهل تأذنين لي أن أعاود الاتصال .

- أجل تفضل (بارتباك)

يرن الهاتف ويستمر فترة طويلة وهي تنظر إلى الزر الأخضر بارتباك منقطع النظير ، وارتياح وقلق وخوف وسرور لكنها تقرر في النهاية الرد : -

- آلو (أسماء)

- نعم أسماء أنا أيمن الذي يحدثك بالكتابة منذ أشهر . .

يسود الصمت بين الطرفين والارتباك المركب من الفرح والقلق هو سيد الموقف ، أخذ كل طرف ينتظر الطرف الآخر ليتحدث لكن دون جدوى ، بعدها تجرأت هي وسألته :-

- كيف حالك أيمن؟

- الحمد لله . . لكني ما زلت مصدوما بصراحة ولم أتوقع أني سأسمع في يوم هذا الصوت الجميل .

- (تضحك) شكرا على المجاملة اللطيفة لكن بصراحة لا أعرف ما أقول ، فلم أكن أتوقع أن يكون صوتك بهذا الهدوء الجميل وبهذه النبرة المريحة .

- (يضحك) أنا الذي يشكرك على المجاملة اللطيفة .

يضحك الاثنان وتبدأ رحلة التعارف الصوتية ، ويمتد

الحديث نحو ساعتين على أمل أن يتجدد غدا .

ذهبت أسماء لمساعدة أخواتها في أعباء المنزل ، بعد أن ظلت سادرة بأذنيها في تذوق ذلك الصوت الذي أسر ما بقي من روحها وفكرها ، كانت تعمل في الطبخ والكنس لكنها لا تشعر بشيء من ذلك ، حتى الأصوات الجانبية ليس لها صدى في أذنيها فهناك من ينادي ويداعب ويتعارك لكن صوت أيمن قد غلف ثقوب أذنيها بغلاف سميك ، فلا تدخل الأصوات إلى الداخل ، ظلت طيلة اليوم صامتة تنظر إلى ساعتها ، أتى من أتى من الضيوف وذهب من ذهب وهي لم تزل ترنو إلى اللحظة التي ستستمع فيها إلى ذلك الصوت الشجي الهادئ ، في العمل كان الجميع يتحدث ويثرثر وهي تتصنع الابتسامة دون أن تفقه ما يقولون ، فقط ترى إلى تلك الأفواه المتحركة في كل آن وحين ، تزداد سحابة الأصوات لتخترق الطبقة التي صنعها صوت أيمن في أذنيها ، تهب بعينيها من نافذة مكتبها لتنظر إلى تلك الهضبة البعيدة لتتسلقها بروحها ولتجد أيمن هناك في انتظارها ، وأمارات القلق عليه بادية على وجنتيه ، فتتجاذب أطراف الحديث مع تلك الروح الشفافة : -

- أيمن أنت هنا؟

- أجل أيتها العزيزة أنا في انتظارك منذ زمن .

- هل اشتقت إلي؟

- وهل كلمة اشتياق تطفىء ما في قلبي من انتظار ولهفة

إليك ، يا سيدتي كل يوم أبحث عن أثرك عن رائحتك!

- إلى هذه الدرجة؟

- بل إلى أقصى من هذه الدرجة بدرجات ، كيف لا أشتاق إليك وأنت ملهمتي ، وأنت من أصبحت مكونا من جسدي بل مقدسا من مقدساتي ، لو اختفت الشمس من كبد السماء تظل السماء منيرة بك ، كما ينير قلبي من جذوة حبك لي ، لا أدري يا ملهمتي كلما حدثتني نفسي أن أقاوم حبي الجارف إليك ازداد هذا الحب غزارة واندفاعا ، فأيقنت أني ولدت لأحبك إلى النخاع ، أتظاهر أمام الآخرين بالهدوء واللامبالاة والبعد عن عشقك لكن الحقيقة أن الرماد الهش دائما ما يغلف الجمر الملتهب ، فالرماد هو تظاهري التهريجي أما الجمر فهو حبي العميق لك . . . أقسم لك أيتها العزيزة على قلبي بأني لا أملك سوى هذا القلب المحطم من غوائل الزمن السحيق ، لكن هذا الحطام بنيته أنت ، وجمعت شتاته أنت ، وعجنت مادة جداره أنت ليكون صلبا قويا . .

- أسماء . . أسماء (إحدى زميلات العمل تناديها)

كانت تنظر بإدمان نحو الهضبة البعيدة المطلة على مكتبها ، ثم نظرت إلى الفتاة بعد أن سمعت صوتا وضوضاء عالية .

- ماذا بك أسماء منذ خمس دقائق وأنا أناديك؟

- أعتذر ناجية .

تقف من مكتبها وتتجه إلى الخارج لتنهي ما تبقى من العمل ، ومازالت عينها معلقة على عقارب الساعة تنتظر الوقت ليمضي بفارغ الصبر ، وكل ما حولها يمضي كأنه طيف أو بقايا رداء ، تعبر أشعة الشمس من ثقوبه بسرعة ، تختلط الأصوات ببعضها وتتداخل الضحكات مع الصراخ والغيبة والنميمة والصدق والكذب لكنها لا تأبه لذلك أبدا ، فهناك أعظم وأرق روح وصوت بانتظارها ، وتمضي الساعات الطوال لتجد أن المساء قد أسدل وجناته على المكان ، وها هي تقف متسمرة أمام هاتفها الصغير تنتظر الاتصال ، كانت تكره هذا الهاتف في ما مضى وتتمنى أن تتخلص منه في أي لحظة لكنه اليوم يحظى بالكثير من الحب والاحترام منها ، فهو الذي جلب لها ذلك الصوت الرخيم الذي بث الطمأنينة والراحة في كل عروق جسدها ، لقد أضحى ذلك الهاتف كعبتها المقدسة التي في كل يوم تولي بجوانحها نحوه ، تسأل نفسها كيف ستصبر في يوم يمر دون سماع صوته؟ ماذا لو قرر الاكتفاء بالمحادثة الكتابية؟ هل ستستطيع تحمل ذلك!

- لا لا أستطيع بعد أن خالط صوته وجداني (تجيب نفسها)

فجأة يرن الهاتف فيفور الدم في كل أطراف جسدها ، وتزداد نبضات القلب ويبدأ العرق بالجريان ، تنظر إلى شاشة الهاتف لتتأكد فإذا بالرقم هو رقمه ، أغلقت الباب والنوافذ ،

بدأت تعدل من شكلها رغم أنه لا يراها وتجرب نبرة صوتها .

- آلو .

- أهلا أسماء كيف حالك؟

- الحمد لله . . أنت كيف حالك؟

- ما دمت أنت بخير فأنا دائما بخير .

- (تضحك) الله يخليك .

- لقد اشتقت إليك كثيرا .

- كثيرا كثيرا .

- كثيرا كثيرا ، ألم أقل لك سابقا إنك ملهمتي وفاتنتي!

- كأني سمعت هذه الكلمة اليوم منك لكن لا أدري كيف سمعتها

- لقد أصبحت قطعة من جسدي بل مقدسا من مقدساتي .

- مهلا أيمن لقد سمعت هذه الكلمات اليوم صباحا في أثناء العمل ، لقد تخيلتك فوق تلك الهضبة . . يا للغرابة!

- إنها روحي يا أسماء كانت تنتظرك هناك .

- أيعقل أن تكون أرواح العشاق تلتقي رغم بعد المسافات وتتبادل الأحاديث؟

- لا يستحيل شيء أمام العشاق ، فروحانا قد تآلفتا منذ زمن طويل .

- صدقت .

- أسماء!

- أجل أيمن .

- أتعرفين ماذا يعني لي اليوم حين يمر دون سماع صوتك وضحكتك الساحرة؟

- ماذا يعني لك؟

- إنه كالشجر الذي تساقطت أوراقه فلا تغرد عليه العصافير ذات صباح ومساء ، إنه الفجر الذي تخنق السحب فيه قرص الشمس ، إنه يعني البكاء المستمر من عيون قرحتها نوائب الدهر ، إنه النهر الذي جفت جداوله بعد أن كان يضج بالحياة .

- (تضحك) هل إلى هذا الحد سماع صوتي أصبح مهما لديك!

- (يسكت قليلا) ايه يا أسماء لو تعلمين أن صوتك صار لي جنة ، وضحكتك جنة ، وقلقك علي جنة ، وفكرك وكلماتك واسمك جنة ، فماذا أبقيت لي من ريح الجنة التي وعد الله عباده؟!

- (تضحك بخجل) لا أدري كيف أعبر لك عما في دواخلي ، لكن ما أنا متأكدة منه بأنك تسكن في أعماقي منذ زمن ، لا اعرف كيف أعبر لك عن مكنوناتي تجاهك .

- لا بأس فأنا أشعر بحبك وهو يرفرف من حولي ولو لم تنطقي به ، ويكفي دليلا على ذلك بأنك ما زلت تحدثينني .

- أيمن؟
- ما أجمل اسمي وهو يخرج من فمك .
- (تضحك) لا أدري كيف سأسألك لكن أرجوك لا تزعل أو تغضب علي .
- من يزعل أو يغضب على شطر روحه؟
- أسأل نفسي هل ما نفعله هو صحيح ، وهل لو رفضك أهلي ستتخلى عني؟
- إيه يا أسماء هذا ما يزيدني عشقا فيك ، حين تخرجين هواجسك وما تتحفظين لأجله ؛ فأي عذوبة سيدتي هذه التي أشعرها بحبك!؟ وأي نفس طيبة طاهرة التي بين جنبيك؟ من أي زمان نقي عذب أتيت؟ ومن أي مادة ربانية صنعت؟ ما الذي أحدثتيه في بقاعي من اخضرار وازهرار؟ وما هذا النسيم العليل الذي يأتي من هضاب قلبك ليلامس سنابل قلبي في كل حين؟ يحق لك أن تسألي لكن الإجابة أنا على يقين أنها في داخلك ، وأنا مؤمن بأن كل واحد منا لا يستطيع فراقا للآخر ، فقد وصلنا مرحلة الإدمان في تعاطي العشق ، فقلبي معك لا أستطيع أخذه ولا أملكه ، وقلبك معي لا تستطيعين الحصول عليه ، قدرنا أن نكون معا ، نحن يا حبيبتي لم نبن حبا لأجل العبث وتقاذف الرومانسيات كحبات الكرز وإنما نتوج هذا الحب بالزواج ، فهل ترضين أن تكوني زوجتي وحبيبتي؟

- (تسكت خجلا من هول المفاجأة) أنت تدري قدرك لدي وكيف أني أدعو ليل نهار أن أكون بقربك .

- أما رفض أهلك لي فما أزال أدفع قارب حبي لك بالتفاؤل ، وما زلت أرمق الأمل من بعيد ، وبالرغم مما يكتنف مشوارنا من صعوبات وآلام ومطبات إلا أني ما زلت طالبا في مدرسة الأمل والصبر ، أبحث عنه وسأحصل على شهادته قريبا .

- (تضحك) قريبا؟

- أجل قريبا جدا أيها الفلامنجو .

- أو تحب طائر الفلامنجو؟ يا سبحان الله ما هذا التوافق العجيب بيننا .

- نعم أحبه كثيرا ؛ لأني أيضا ما زلت أتحدث إلى هذا الطائر الجميل (يضحك)

- تقصد أنا؟

- أجل أنت أسماء ، أنت طائر الفلامنجو الذي سيهاجر قريبا من غرب الجزائر ومن جوهرة المغرب العربي تلمسان الجميلة ، وسيأتي معي حيث أعيش .

- (تضحك) إذن ستكون هجرة ممتعة .

- أجل فأنت أيها الفلامنجو ستستقر لدي في عمان ، فهل أنت مستعد أيها الطائر الرائع؟

- (بسعادة وحماسة) بكل تأكيد وفي قمة الاستعداد .

- إذن غدا سأكون معكم لأتقدم لخطبتك .

- أأنت جاد يا أيمن؟

- نعم جاد وقد يكون هذا آخر اتصال هاتفي بيننا ليكون لقاء مباشرا بالوجوه والعيون والابتسامة .

- (تصمت والفرحة تسكت لسانها) لا أعرف ما أقول فقد فاجأتني .

- قلت لك لن أتنازل عنك مهما حصل ، ولن أفرط فيك أبدا ، إن رفضت سأعود مرة أخرى ثم أخرى ، أنا حياتي بدونك لا فائدة منها ولا طعم ، لذلك أنا آت إلى أهلك .

تغلق الهاتف فجأة بعد أن دخلت والدتها والسعادة تملأ وجهها ، وتظل الأم تنظر إليها باستغراب ، فهي لأول مرة ترى هذا اللمعان في وجنتي ابنتها مع الدموع التي تجري دون توقف .

نداء الداخل
(بين مسقط وتلمسان)

في ما مضى كانت أسماء تتحفظ على بناء علاقة مع أيمن ، فهي تعلم وهو يدرك أنهما في عالم افتراضي ، وكم من دراسات ومقولات ذهبت أن من المستحيلات السبعة ان تكون هذه العلاقات سوى رومانسيات عابرة . لكن في الوقت ذاته في الدول المتقدمة هناك آلاف الزيجات التي تتم عبر هذا العالم الجديد ، وقد نجح الكثير منها ، كانت في حيرة شديدة من أمرها وفضلت أن تختلي بنفسها لتذهب إلى بيت جدتها لأيام ، هناك جلست ليومين لكنها شعرت بأن نداء بعيدا يهاتفها فتتجاوب الأعماق لديها ، لم تعرف معنى هذا النداء لكنها تشعر أن مشاعرها غير طبيعية ، حاولت أن تنسى وأن تجلس مع جدتها لساعات ولأيام لكن الروح كانت غائبة تماما ، تحاول مرارا أن تسفه مشاعرها وأن تدفنها في رمال النسيان لكنها تظهر كالبعبع في كل لحظة ، تذكرت الأحداث وهي جالسة مع العائلة حين انقضى اليومان قررت فتح الفيسبوك ، لقد كانت المفاجأة كبيرة إذ وجدت رسائل كثيرة من أيمن كان آخرها :

- أسماء يبدو اني لا أستحقك ، لذلك لا أمتلك سوى قول : (وداعا وقد سررت بمعرفتك)

لقد هزتها الجملة من أعماقها وبدأت تفتح رسائله السابقة واحدة تلو الأخرى :

- أسماء لدي بعض الكلام أريد قوله لك لكني كثير الحياء ، فهل تسمحين لي .

- أسماء أقولها بملء الفم بأني أحبك رغم أني لم زر وجهك .

- أسماء أشعر أنك غاضبة علي لجرأتي ووقاحتي أرجوك سامحيني .

- أسماء إذا لم تردي علي خلال ساعة فلدي يقين أنك لا تريدين التحدث معي أبدا .

- لقد سعدت بمعرفتك وأعتذر عما سبق أنا فعلا لا أستحق العطف منك .

بعدها انتقلت إلى كتاباته التي نشرها في صفحته بعد رسالته الخامسة ، فكانت تحت عنوان (من مذكرات عاشق مفجوع)

- أيها القوم هل سمعتم بطفل يتخلى عن أمه ، أنا ذلكم الطفل الذي لا يستغني عنك في كل المواقف والظروف .

- أحتاج إلى كل شيء فيك حتى إلى تفكيرك بي في أمس الحاجة أنا إليه .

- أبت لقد وجدت روحي التائهة في الآفاق أخيرا ، وجدتها ذات مساء . . لكن أواني قد فات . . ألا تذكر يا أبت حين قال لك العراف الكهل في ذلك الصيف الحار : سيجد روحه لكنها ستذهب عنه بعيدا جدا ، لأن شمسه قد غربت . . صدق العراف يا أبت في شرعي وإن كذب في شرعك ، فشمسي قد غربت وروحي من جسدي قد خرجت .

- أيها الليل البهيم ألا تسمع الأنين في جنباتك . . فآلامك وهمومك ما تركت مكانا في القلب إلا وطعنته ومزقته . . أرجوك اذهب وخفف وطأتك علي واشفق لحالي بعد أن تركني من أحب!

- ها أنا بعدك أموت سريريا ، لا أذوق نوما ولا طعاما ولا راحة ، بل حتى النفس لا يدخل في جسدي سوى بصعوبة ، لقد ابكاني الفراق ولم تجر دموعي قط كمثل هذا اليوم .

- أحاول أن أهرب منك لكن خيالك يطاردني ، وابتسامتك الطفولية تعذبني دوما .

- آه يا من ركنت للفراق لن تسير الركبان بذكري بعد اليوم ، فالقلب الذي جمعت أجزاءه خلال الأشهر الماضية قد تناثر مرة أخرى إلى قطع صغيرة جدا لن تستطيع جمعها بعد اليوم . .

- ربما أنسى نفسي حين أناجيها ، وأنسى من حولي في زحمة الحياة المجنونة ، وأنسى أفكاري حين أتلوها لغيري ،

وأنسى سجودي أو ركوعي حين أصلي ،لكني ما استطعت نسيانك أيتها الرائعة ، فالهواء أنت والماء أنت ، وصوت العصافير والحمائم هو أنت ، واللون الأبيض والأزرق والأخضر والبني هو أنت . .

- حين تتراقص خيوط الشمس أمام عيني في كل صباح جديد أدرك أن الأمل ما زال موجودا في رجوعك إلي .

تذكرت أنها عندما فرغت من قراءة الرسائل انتابتها حالة من البكاء ، فقد كانت تشعر بكل هذه المشاعر لكنها تكتمها وتستر عليها بغطاء الإنكار ، بعد ساعة وبعد أن هدأت نفسها توجهت إلى الجهاز وبدأت بكتابة رسالتها التي ظلت تحذفها عدة مرات وتعيد كتابتها عشرات المرات .

- أيمن هل أنت هنا؟

- أيمن لم أقصد إيذاء مشاعرك!

مرت ساعة كاملة ولم يرد أيمن على الرسالة لكنها لاحظت أنه يقرأ رسائلها من خلال تقرير العرض .

- أيمن أعرف أنك هنا وتقرأ رسائلي ، أرجوك أريد منك دقائق قليلة وبعدها افعل ما شئت

تمر ساعة أخرى وأخرى دون أن يرد ، أدمن أيمن خلال الأيام القليلة المشي أمام البحر يشكو همومه الثقيلة ويستمع إلى الأمواج التي يرتفع ضجيجها ، كان يقرأ رسائلها ويشعر بأزيز في جدران قلبه العميقة :

- لا يا أيمن أنت أقـوى من هذه الهنات والخـزعـبـلات (يحدث نفسه)

لكنه بعـد دقـائق يركن للبكـاء والألـم فـتـتـنـاثر دمـوعـه مع الهواء العليل الآتـي من جهة البحر ، لا يدري ما الذي حصل له ولقلبـه ، قرر زيارة بعض الأصـدقاء والابتعاد عن النت لكن جسده حاضرا دون الفؤاد ، بعدها حاول المشي لمسافات طويلة ليغزوه التعب والإرهاق ، وحين وصوله البيت وبعد أن سد كل الثغرات المؤدية إلى قلبه إذا بتلك الثقوب المرقعة تتدفق منها مياه الحب الجارفة فيتذكر أسماء ، وأخذ يقدم يدا ويؤخر أخرى لكنه قرر أن يحادثها ، تذكر حين ابتدأ :

- أهلا أسماء أنا هنا .

جاء الرد سريعا فقد كانت تنتظر ساعات طويلة وأياما :

- كنت مؤمنة بأخلاقك أنك ستحادثني لا محالة .

- مؤمنة بأخلاقي؟

- أجل أيمن إني مؤمنة بك وبأخلاقك .

تذكـر أنه ظل صـامـتـا لخـمس دقـائق لهـول مـا سـمـع من حديثها : -

- أيمن هل خرجت!

- لا لا أنا هنا .

- أيمن أنت شاب طيب وتمتلك قلبا كبيرا .

- أشكرك على رهافة الإطراء .

- هي الحقيقة أنت شاب تستحق كل خير .

مـرت ربع سـاعـة دون أن يكـتـب أحـد منهـمـا إلـى الآخـر ، بعدها كتب :

- أسماء أنا مضطر للخروج الآن!

- هل سترحل!

- لا لن أرحل لكني سأتركك قليلا لأجل الراحة .

- انا لم أشتك إليك إرهاقا أو تعبا .

- حسنا لظروف خاصة بي .

- أها قل هذا!

- لكني سأعود .

- كما تشاء .

- وداعا .

- في حفظ الله .

- أسماء!

- تفضل .

- سأعود .

- حسنا وفقك الله .

- أسماء!

- تفضل .

- إني ما زلت معجبا بك وما زلت لي من الممكن البعيد ، وداعا .

تذكر حين أغلق المحادثة وكانت جملته الأخيرة حملت الكثير من رياح وأعاصير المشاعر الجياشة ، لأول مرة لا تشعر بإصبعها إلا ويمسك القلادة مرة أخرى ، وحين تلامسها تردد دون وعي اسم أيمن ، مرت الأيام وأيمن مازال صراعه الداخلي وصمته الرهيب ، كان الصمت من الطرفين لكن تفكر كل طرف بالآخر هو سيد الموقف ، كان خائفا أنه سيظلمها لأنها ستهجر أهلها ووطنها الذي عاشت بين أكنافه ، تذكر اعجابها بقلمه وأخلاقه حين صارحته ذات يوم بقولها : أنت يا أيمن لست كأي إنسان ، لو كنت إلها لسجد الجميع لك ، ولغردت الطيور انتشاء بك ، تذكر غروره من هذه الكلمات لكنه رد عليها :

- أعترف يا أسماء بأني أوهمتك بأني إله او ملك .

- لا لم توهمني بذلك هذه هي الحقيقة .

- لا ليست الحقيقة ، لقد رفعتني عاليا إلى قصرك الجميل المنيف حيث جنتك الخالدة ، لكني لا بد أن أكون صادقا أنا إنسان كان تائها فعرف طريقه ، أنا إنسان يخطئ ويصيب ، ويضحك ويبكي ، لي مشاعر كسائر القطيع البشري .

- لا أنت ملك بل أنت إله .

- (يضحك مع نفسه) اقسم لك إني إنسان وسأظل إنسانا مدى الدهر ، وسأموت بصمت كسائر الناس ، إنسان أحب قصرك ، أحب لونه وصلابته وجماله وروحه الخفية ، أنا لست ملكا لست إلها .

كان لا يفرط في وقتين يجلس خلالهما عند شاطئ البحر ؛ وقت الفجر عند شروق الشمس ووقت الأصيل حين تبدأ بالغروب ، فعند الشروق يتجدد حبه لأسماء ويزداد هيامه بها ، ويعيشها روحا وفكرا مع هدوء الليل الذي غادر ، ويتنفسها مع نسمات الصباح ، أما الغروب فلوعة العشاق وقلقهم تبدأ في ذلك الوقت ، كان يتصارع في داخله رأيان ، أن يتواصل معها ويظل الحبيب المخلص رغم المصاعب الكثيرة أو يتركها ويحطم قلبه لأجلها ، لقد مرت الأيام السبعة العجاف وهو مدرك أنها تفكر به كما يفكر بها ، فالعشاق يفهمون بعضهم بعضا حين يضرب الصمت بأطنابه عليهما ، تذكر حين قرر أن يفتح صفحته على الفيسبوك وأصابعه تتنافس على ضغط الأزرار ، وما إن فتحها حتى وجد مجموعة من رسائلها التي ألهبت وجدانه .

- أيمن كنت أظن أني لا أحمل لك سوى الإعجاب ، وقد حاولت وضعك في غياهب النسيان لكن يبدو أن الأمر أكبر من ذلك بكثير .

- أيمن لا أأهم غيابك هذه الأيام السبعة وأنت الذي صرحت بإعجابك بي .

- أيمن أشعر أني أحمل لك الكثير من المشاعر وغيابك هيج الأشجان وزاد من لواعج القلب ، وفجر ينابيع الود وكسر أشرعة الروح .

- أيمن أين أنت؟ أهذه مشاعرك التي تحدثت عنها ، ألم أقل لك إنك تحمل إعجابا سرعان ما يخبو . . . لقد تشرفت كثيرا بالتعرف إليك .

تذكر حين كان يقرأ رسائلها ودموعه تتصبب على صدره ، وبدأ بعدها يجهش بالبكاء لدقائق ، ووضع رأسه على يديه وهو يردد بصوت متهدج بالبكاء :

- إني أحبك أسماء أحبك ، هذه هي الحقيقة التي لا أنكرها .

بعد مرور دقائق سمع صوت الرسالة ففتحها :

- أيمن طلبت مني ذات مساء أن ترى صورتي على حقيقتها ، وها أنا أرسلها إليك .

يفتح الصورة واذا به يرى ملاكا على هيئة امرأة ، تلك العيون السوداء الواسعة والملامح الطفولية الهادئة ، والابتسامة العريضة التي تنم عن صفاء النفس ونصاعة القلب وطيبته ، ثم نظر إلى الرسالة الأخرى :

- هذه هي أسماء في قمة بساطتها هي هذه التي كنت تحدثها سالف الأيام .

- (فجأة يقرر محادثتها) أسماء!

- نعم أيمن!

- لم أتصور ان تلمسان تحتوي على هذا القمر المنير ، ما هذه العيون الجميلة السوداء ، إني ورب الكعبة لن أفلح أبدا في

وصفها ، لكن يكفي أن أقول إنها جمعت الجمال والدلال والجد والحزم والصفاء والحب والرقة .

- لا لا تبالغ في هذا أرجوك .

- أقسم لك إني لا أبالغ ، فرائحة التاريخ أنت أيتها الفاتنة وصوت النقاء كذلك ، نسيم الصبا أنت وانسياب السحر كذلك ، ضوء القمر في ليلة تمامه أنت ، وأناشيد الطفولة وأزاهير الطبيعة وأغاني المبدعين كذلك ، تغريد الطيور وابتسامة الطفل وشروق شمس الصباح هو أنت ، ايه يا أسماء يا أيها الأمل البعيد القريب ، أيها الجسد الذي يبعد عني آلاف الأميال ، سيأتي اليوم الذي تتقارب فيه الآمال والأجساد كما تقاربت الأفكار والأرواح .

- إن شاء الله .

- قدرنا يا أسماء أن نكون معا أو نموت معا أو يموت أحدنا .

- أبعد الله الموت عنا أنا هنا أيمن وسأكون هنا دائما ، وسنكون في يوم تحت سقف واحد .

- لقد بحثت عن ساحر يحولني وأنت معي إلى طائرين فنطير بعيدا ونهاجر إلى ارض جميلة ، هناك حيث يلتقي القلبان وتختلط الدموع وتتعانق النظرات .

- ما أقرب الأمنيات وما أجملها حين نزوقها بالخيال الجميل ونهيء الواقع لها .

- أسماء إني أشعر بحبك لي ولو لم تعبري عنه

بلسانك ، أشعر به يتدفق نهره على جسدي من كل جهة .

– والله يا أيمن إني أحمل لك الكثير منه ، وستثبت الأيام لك

– لا ، أنا لا أريد إثباتا من الأيام ، فقد أثبت حبك لي كل شيء ، إني أعيشه في كل لحظة بل في كل ثانية ، أشعر بروحك تحلق حولي وبجانبي ، أشعر بأنفاسك وزفراتك .

– أنا معك دوما بروحي أيمن أينما ذهبت .

– أتعرفين أسماء بأن روحينا الشفافتين قد التصقتا ببعض ، فحين تفرحين يزداد قلبي حبورا دون أن أعرف السبب ، وحين تمرضين كل التفاصيل المملة في جسدي يعزي بعضها بعضا ، أما القلب يكون كالثكلى المكلومة .

– سلامة قلبك من كل أذى .

– لقد غدوت كل شيء في حياتي .

– وأنت يا أيمن . . . .

– انا ماذا؟

– أنت حلمي وكل أمنياتي .

– كم هي جميلة عبارتك فرفقا بقلبي ،

– إني . . . إني . . . . إني أحبك يا أيمن أجل أحبك .

– ما ألذ هذه الكلمة التي انتظرتها بفارغ الصبر ، أتدرين أسماء حبيبتي ، وأقولها بدون قيود أو تحفظ ، أجل أنت

حبيبتي ، أتدرين بأني في هذا الليل القصير على الناس الطويل على قلبي ، حين أفقدك ماذا عساي أن أفعل بدونك أيتها المليحة؟ وأي أرض أو سماء ستحتويني حين تغطي الأكمة نور وجهك عني ولو لساعة . . هذا القلب أيتها الغالية إذا أخرجت ما فيه فلن تجدي فيه لك سوى الحب ثم الحب .

- الله يحفظ لي هذا القلب الكبير .

تذكر أيمن هذا الحوار الذي يطرب له كثيرا لكنه سرعان ما صحا على طرقات على ظهره ، وما ان التفت حتى رأى ذلك الطفل وقد رجع مرة أخرى يريد أن يلعب معه ، فالتف بجذعه نحوه وهو يصدر صوت القطة ، وإذا بالطفل يهرب ضاحكا فيقف ليتبعه والأم تنظر إليهما بابتسامة عريضة ، وخلال مداعبة الطفل جاءته رسالة على هاتفه :

- أيمن أين أنت؟ لقد تأخرت كثيرا وشوقي إليك تزداد جذوته لهيبا ، ألا يحرك الشوق إلي لديك أي مشاعر ولو لساعات (أسماء)

ابتسم ولسان حاله يقول لو تعرفين ما فعل بي الشوق فكتب :

- بعدي عنك ولو لساعات قليلة يهيج لواعج القلب ويدمي العيون ، فكيف إذا غبت لأيام أو لأشهر؟ خذيني معك باقة ورد أو كمنديل في يديك ، خذيني كطفل لم يحن فطامه بعد واحمليني في حضنك الدافئ الأمين ، خذيني رباطا

مزخرفا لشعرك الجميل الأسود الطويل ، ضعيني في حقيبتك الجميلة واحمليها على كتفك ، ولا تطعميني سوى نظرة من عينك أو قبلة من شفتيك الرقيقتين ، ضعيني علكة في فمك أو وشاحا حول عنقك الزاهي الجميل يتدلى بانتشاء وكبرياء على صدرك ، أو اجعليني أي شيء في يديك تحملينه أينما ذهب معك ، وأظل ملتصقا بك طيلة عمري . .

- أخاف أن يسمعك الآخرون أو يقرأون ما تكتبه وأنت في مكان عام يجتمع فيه الناس فربما يتهمونك بالجنون!

- فليقولوا إني مجنون لا بأس ، فما أجملها هذه الكلمة اذن سأعلنها وأقول : يا أيها الناس هل سمعتم بالجنون . . ها أنا أحدهم ممن لبسه هذا الجنون ، لكن هل سمعتم بمجنون يشرب كأس الجنون المترع بعذوبة الخمرة أنا هو أيضا ، وجنوني بفتاة عينها أخذت لبي فجعلتني بدونه أهذي وأهذي كثيرا ، فتاة نزعت روحي فجعلت مني جسدا هائما في الطرقات ، أعترف لكم أيها الناس بأني في قمة جنوني بها ، لا أستحي من حبها ولا أستحي إن قبلت نعلها ورأسها وخدها ، لا أستحي إن جعلتني خادما لها ، نعم أنا مجنون بها ، أنا مجنون .

- أبعدك الله عن الجنون .

- أتدرين أسماء . .

- ماذا؟

- حين أتذكرك أتذكر نفسي ، وكلما تذكرت نفسي

تذكرتك ، وكلما تناسيتك تذكرتك ، وكلما نسيت نفسي تذكرتك .

- وأنا أيمن حين أشم ريح الخزامى أتنفسك مع الشهيق ، وفي الزفير أخرجت كل شيء إلا أنت ، تركتك داخلي لتكون رئة أخرى أتنفس بها .

- أسماء!

- أجل أيمن .

- مازال الحنين في صدري يحن إليك - حبيبتي - فكيف إذا ازداد قلبي إليك حنينا ، مسافات العالم سأقطعها سريعا لأرشف من نهر حبك رشفة لا أظمأ بعدها أبدا ، سأقاتل الناس لأجلك يا فتاتي لتكوني بقربي .

- (بروح الفكاهة) إذن أنت من المقاتلين المحترفين .

- وسأستبسل لأجلك ولو سال دمي وشوه جسدي ، فالموت في سبيلك شهادة ما بعدها شهادة في دنيا العشق وهل بعد العشق سوى العناق أو الشهادة؟

يأتي فجأة ذلكم الطفل يسحب أيمن من ردائه ليلعب معه .

- أسماء تعرفت إلى صديق جديد في المطار يصغرني بثلاثين عاما .

- ما شاء الله على الصداقة ، يا له من صديق مناسب ، إذن أتركك الآن فصوت الطفل أسمعه يناديك .

- لم يبق إلا القليل أسماء .

- إن شاء الله خير ، أنتظرك بفارغ الصبر .

في تلك اللحظات يأتي صوت يحث الركاب على التوجه إلى الطائرة فورا ، عندها اضطر أيمن إلى غلق المحادثة بعد أن ودع أسماء ، فحمل الطفل على كتفه متجها نحو الطائرة .

Flamingos migrate from Tlemcen



الفلامنجو يهاجر من تلمسان

كان دائما يحب أن يقرأها مع نفسه، يعتبرها مددا روحيا لا يستغني عنه ، فإذا ادلهمت أوقاته وعصفت به الهموم يرجع إلى ذلك الدستور الذي تبدأ أول جملة فيه : أعتن بنفسك يا أيمن ، أعتن لي بأيمن يا أيمن....

ISBN 978-614-419-371-6



